

الفصل الثانی

التأویل

أولاً : أهمية دراسته وطبيعته

يرى « رويس » أن التأویل عملية ضرورية ، وإذا كانت قيمة حياة الفرد ومعرفته لذاته ، تستند على تفسيره لحياته ، وإمتداده بذاته ، من جهة ، وقيام المجتمعات يتوقف على قدرة الأفراد على تأویل أنفسهم من جهة أخرى ، فإن التأویل قد أصبح ضرورياً لوجود كل من الذات الفردية ووجود المجتمع . والحقيقة أن القيام بالتأویل ليس عملاً إختيارياً ، وإنما تتطلبه دائماً حاجة إنسانية ملحة ، ويخطأ كل من يتصور عدم الحاجة للتأویل ، عند معالجة مسائل الدين أو موضوعات الفلسفة . فلقد وضع أن فهم صلة المذهب المسيحي في الحياة ، بالعالم الواقعي تعتمد على فهم محدد لفكرة المجتمع ، الذي يعتمد في تكوينه وتشكيله على الطريقة التي يفسر بها كل عضو من أعضاء حياته ، ولقد ظهر أيضاً أن الذات الإنسانية نفسها ، ما هي إلا مجموعة من الخطط والذكريات والأمال والأعمال ، ولا تتحقق وحدتها بدون عملية التأویل ، كذلك قد وضع أن المجتمع ، ما هو إلا مجموعة من الأفراد ، الذين فسروا حياتهم وذاتهم ، بصورة حققت نوعاً من الوحدة بينهم ، لذلك وجود وجود تفسيرات وتأويلات في العالم ، لا وجود لنفوس أو لمجتمعات (١) .

والحقيقة أن أى فلسفة ما هي إلا تفسيراً للحياة أو للكون أو كلاهما ، الأمر الذي يشكل أهمية لمعرفة ما هو التأویل . وقد يصعب المقصود تحديد بالتأویل تحديداً دقيقاً نظراً لتطبيقاته العديدة فتفسير نص مكتوب بلغة مختلفة وتأویل الفرد لحياته ، والتفسير الفلسفي لهذه أو تلك الفكرة الدينية ، والتفسير العلمي لمصير الفرد أو الكون ، كلها عبارة عن أنواع مختلفة للتأويلات ، ويرى « رويس » أنه إذا تم البحث عن العنصر المشترك في هذه التأويلات المتنوعة والمختلفة . يتضح أن التأویل عبارة عن مسلك عقلي ، يمثل طريقة مختلفة للتفكير ،

J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p.112.

(١)

يتبعها المفسرون بصرف النظر عن الموضوعات التي يقومون بتأويلها . لذلك إذا ما نظر للتأويل ، كعملية عقلية ، أو كمنط من أنماط المعرفة ، فإنه يبدو مختلفاً عن العمليات العقلية المعرفية الأخرى سواء فى الموضوعات والعلاقات التي ينسبها إليها أو فى الغايات التي يهدفها منها (١) . ولذا تتطلب معرفة معنى التأويل وموضوعاته وغاياته إجراء مقارنة بينه وبين العمليات المعرفية الأخرى وموضوعاتها (٢) .

أ - قصور التصنيف الثنائى للعمليات المعرفية :

يرى « رويس » أن التعارض بين الإدراك الحسى والتصور ، قد سيطر على تصنيف العمليات الفكرية طوال تاريخ الفلسفة فقال ، البعض « بالإدراك الحسى » مصدراً « وحيداً » للمعرفة ، وقال البعض الأخرى « بالتصور » . ولئن ظهرت إتجاهات للمزج بينهما ، إلا أنها جاءت غامضة ، أو ناقصة ، ولا تقول بوجود عنصر ثالث بجانب « الإدراك » « والتصور » . يقول « برجسون » إنه ليس هناك حاجة للتصور ، وما التصور إلا بديلاً مؤقتاً للإدراك ، ولا يحتاج الإنسان للتفكير عموماً ، إلا لكى يوسع ما جاء من الإدراك (٣) . والحقيقة إنه إذا أمكن الاعتراض على مقولة « برجسون » بأهمية التصور ، لأن الإدراك غالباً ما يخدم ، وبأن « التصور » هو الطريق الحقيقى والصحيح لفهم الواقع ، أى بمعنى آخر ، إذا فضل أحد « أفلاطون » عن « برجسون » فإنه لن يسلم من التصنيف الثنائى للمعرفة ، ولئن كان قد حدث نوع من الإعتراف بوجود مستقل للعقل ، والعمليات العقلية ، التي تعلوا العمليات البسيطة للإدراك والتصور ، إلا أنها لا تؤكد وجود نوع ثالث للمعرفة ، فتأكيد « برجسون » على إعتبار التفكير صورة أو درجة خاصة من عمليات المعرفة ، لا يعنى وجود طريق ثالث لها . كذلك عندما قال « كانط » ، بثلاثية « الحواس » و « الفهم » و « العقل » وأعطى للفهم قوة تشكيل وإستخدام « التصورات » ، والعقل قوة الإدراك ، وقال بوظيفة ثالثة للعقل ، لم يوضحها بصورة تفصيلية ، فإنه يظل معتمداً على التباين بين الإدراك والتصور ، لأنه ولئن قد حاول الإقتراب من الإعتراف بوجود مصدر ثالث

Ibid ., p. 114

(١)

Ibid ., p. 115.

(٢)

Ibid ., p. 118

(٣)

للمعرفة ، إلا أنه لم يصرح مطلقاً بتصنيف ثلاثي لها (١) .

ويؤكد « رويس » أنه بالرغم من إنتشارالتصنيف الثنائي للمعرفة . إلا أن الحياة الواقعية تؤكد أنه لا وجود لإدراكات بحتة أو تصورات صرفة ، وإنما هناك نوع من الوحدة أو الإتحاد أو التركيب . وإذا كان كل من بين التجريبيين والعقليين والبراجماتيين والمثاليين قد إتفقوا على وجود هذا الإتحاد ، وإختلفوا فى نوعه ، إلا أن أياً منهم لم يصرح بوجود نوع ثالث للمعرفة إلى جانب الإدراك والتصور . كذلك ولئن إعتترف بعض الفلاسفة منهم بأنه من الممكن تكوين مركب من « الإدراك » « والتصور » من خلال وجود نوع من النشاط العقلى كالإنتباه أو سلسلة الأفعال الإدراية ، إلا أن ذلك يعتمد على وجود طرفين متقابلين ، يدخل عليها « عامل ثالث » ، سواء كان وعداً (٢) . أو « إرادة » ، يجمع هذين النقيضين فى مركب ما ، ولكنه لا يختلط بهما أو يتعاون معها ، لذلك لا يعتبر هذا « الفعل » أو النشاط الإرادى ، عنصراً ثالثاً إلى جانب كل من « الإدراك » والتصور فى العملية المعرفية ، فقد بعد هذا الفعل مجرد رغبة وبذلك يظل التباين الثنائي بين الإدراك والتصور قائماً (٣) .

ب : الحاجة إلى عنصر معرفى ثالث

ويبرر « رويس » الحاجة للتأويل ، بأن إذا كان التصنيف الثنائي للمعرفة يعتمد على « موضوع » المعرفة ، فيكون « موضوع » الإدراك الحسى هو الجزئى والمعطيات الحسية والجزئيات ، ويكون « موضوع » التصور هو الكلى ، أو الصفات العامة المجردة ، فأين يضع الفرد « عقل جاره » ، أ يكون عقله مدركاً حسيماً ، يمكن إدراكه مباشرة أم يكون على العكس مجرد إسم كلى أو نوع من الوجود المتصور ؟ وإذا كان « التصور » وعداً بالدفع ، ويحتاج إستبدالاً من « ذهب » الإدراك المباشر(٤) ، الذى يقدمه الفرد كقيمة نقدية لفكرته عن « عقل » جاره ؟ الحقيقة الواضحة أنه لابد من وجود « التأويل » كنوع ثالث للمعرفة ، تتم به معرفة « عقل الجار » والحقيقة إن « موضوعات المعرفة » التى يمكن إدراكها أو تصورها

Ibid .,p. 120

(١)

Ibid ., p. 122

(٢)

(٣) المقصود هنا « برجسون » فى إعتباره التصور وعداً بالدفع

(٤) المقصود المعرفة عند « برجسون »

غالباً ما تحتاج للتأويل . فمعرفة « الموضوعات العقلية » أو « الرموز » التي يعبر « عقل » مابها عن وجوده وعملياته مسألة يصعب إكتسابها بالإدراك أو بالتصور، و بالتالي فإنها تشكل موضوعات للتأويل . كذلك يلاحظ أن موضوعات التأويل تستقل عن موضوعات « الإدراك » و « التصور » ، بل ويعتبر التأويل عملية معرفية مستقلة . وإذا كان « برجسون » يعتبر الإدراك قيمة فورية « ذهب » والتصور ، قيمة مؤجلة ، (بنكنوت) ، والوعد بالدفع من جانب البنك علاقة بينهما ، فهناك قيم أخرى فى التجارة إلى جانب القيمة الفورية والقيمة المؤجلة ، فمثلاً إذا كان هناك « مسافر » يريد عبور الحدود ، ولديه « عملة » لا تستخدم فى الدولة المسافر إليها ، فإن عليه أن يقوم بإستبدالها ، وقد تكون عملية « تبديل العملة » ، سهلة أو صعبة ، عشوائية أو قانونية ، إلا أنها تعد عملية ثالثة ، تختلف عن تقديم القيمة الفورية أو قبول القيمة المؤجلة ، وإنما هى عملية « تأويل » للقيمة الفورية فى بلد ما بالقيمة الفورية لبلد آخر . ولا حاجة هنا لمعرفة القواعد التى سلك بناءً عليها كل من « المسافر » و « الصراف أو « تاجر العملة » أو التى على أساسها تم التأويل ، وإنما المهم أن تلك العملية تعد نوعاً جديداً من التعامل (١) .

ويعتبر « رويس » التأويل ضرورياً لقيام العلاقات الإجتماعية والروحية . فيقف كل فرد فى محاولة إتصاله بالآخرين موقف المسافر على الحدود بين دولتين ، بولته التى يحيا بها ، والدولة الأخرى ، التى تقع على الجانب الآخر للحدود ، ويرغب فى السفر إليها . ففى تعامل الفرد مع « جاره » ، لا يكون مشاركاً للجار فى إدراكه وتصوراته ، ولئن أمكن الإتصال بينهما فى مجال « التصورات » ، إلا أن التركيب والعملية التى ينتقل بها الفرد من « تصورات » إلى المدركات ، تكون عملية متفرده وذاتيه بحتة ويصعب مقارنتها بالعمليات المشابهة لها فى « عقل » جاره . إن معرفة المدركات المباشرة لفرد آخر ، ومعرفة ما يدور فى خلد ، تعد أمراً فى غاية الصعوبة . وتشبه محاولة الفرد لرؤية العالم كما يراه الآخرون ، محاولة المسافر إستبدال عملته على الحدود ، فيحاول الفرد تعلم كيف يستبدل « قيمه » ، بعملة أو قيم تصلح فى عوالم روحية عقلية أجنبية غريبة وجديدة ، بل وعندما يجتمع نفر من

J.Royce : The Problem of Christianity , P.I pp.128 - 133.

(١)

الناس فإن كل منهم يحاول العبور وإستبدال « قيمه » الفورية والأجلة . ومثلما تختلف عملية إستبدال أوراق « البنكنوت » بقيمتها الفورية « ذهب » ، عن عملية تحويل العملة « إلى عملة دولة أجنبية أخرى ، كذلك تختلف عملية إستبدال الفرد لتصوراته بالمدرجات ، عن عملية فهم وتأييل « عقل جارة . فالحقيقة إن المعرفة الكاملة ، لا تتحقق بدون التأويل ، لأن هناك حاجة للتأويل لمعرفة عالم ما بعد الحس ، أو العالم الروحي العقلي (١) .

ولا يحتاج الفرد إلى « التأويل » فقط في علاقته الإجتماعية مع الآخرين ، بل يحتاج له أيضاً لكي يعرف نفسه . فغالبا ما يحدث في حياة الفرد الباطنية ، أن يضطر إلى عبور الحدود ، فيعبر إلى عالم آخر غير عالم التجربة ، أى إلى عالم الرغبة والأمل والقرار . ولاتتعلق المسألة ، بأن أفكاره السابقة لم تعد « تعمل » كما يقول البراجماتيون ، أو أن الأوراق النقدية « لم تعد قابلة للصرف ، بما يقابلها من الإدراكات الباطنية التي إعتاد الفرد عليها . وإنما يتمثل موقف الفرد ، فى أن كل من أفكاره وخبراته وخططه ، وقدرته على تحقيقها ، قد أصبحت تعاني من عملية « تحول درامى » ، وفى تلك اللحظات ، يحتاج الفرد الآن يعرف « حلمه » « وتفسيره » فى مرحلة الشباب مثلاً أو عندما يواجه الفرد كارثة فى حياته ، أو يكلف بعمل جديد ليس لديه خبرة به ، أو يعتنق ديناً جديداً ، ويضطر الفرد غالباً إلى عبور الحدود ، ولا يجد الطريق ممهداً لمعرفة نفسه فمعرفة النفس لا تتم بحدث مباشر (٢) . والحقيقة إن التفكير يتضمن « محادثة » أو حواراً باطنياً ، يكشف به الإنسان سريرته ، ويشبه التفكير عملية الإستدلال التي ترشد النشاط أو السلوك الإجتماعى الذى يعتمد عليه الفرد فى تأويل أو تفسير « عقل الجار » ، ولا يمكن رد هذا الإستدلال إلى الإدراكات أو إلى التصورات (٣) . بذلك يقرر « رويس » بأن هناك حاجة للتأويل ، عندما يحاول الفرد الإتصال بالآخرين ، أو عندما يحاول الغوص فى أعماقة وعبور الحدود .

Ibid ., p. 136

(١)

Ibid ., p. 138.

(٢)

Ibid ., p. 139

(٣)

ج - الشروط الصورية للتأويل :

ويتضمن التأويل ثلاثة أطراف ولا يمكن إكمال عملية التأويل ، بذكر طرفين فقط . فمثلاً إذا كان هناك عالم « مصريات » ، يترجم نصاً إلى اللغة الإنجليزية ، فالترجمة تعد نوعاً من التأويل ، وتقوم على ثلاثة أطراف ، النص المصرى القديم ، والمترجم « عالم المصريات » ، والقارئ الإنجليزي . والمترجم عبارته عن فرد يعبر عن نفسه من خلال لغتين ، أو فردين أو كائنين ، أو نمطين من الفكر ، ولا بد أن يعرف « المفسر » كلا اللغتين ، حتى يكون مفهوماً من جانب الشخصين اللذين يقوم بالترجمة بينهما ، وتتضمن هذه العلاقة الثلاثية ثلاثة حدود منفصلة ومتميزة ، وذات نظام محدود ، ويعتبر « المفسر » أولها ، « والموضوع » المراد تفسيره ثانيها ، « والمستفيد » من التفسير ثالثها . وتعد هذه العلاقة الثلاثية شرطاً صورياً لأى عملية تأويل . وعندما يفسر الفرد ذاته ، يوجد ثلاثة أطراف أيضاً ، بالرغم من أن الفرد كائن واحد ، فهناك « الأنا » الماضى ، و« الأنا » الحاضر « و الأنا » المستقبل ، وعندما يتأمل الفرد « ماضية ، ويتذكر مثلاً وعداً يكون قد قطعه على نفسه ، فإنه يفسر فى « اللحظة الحاضرة » ، ما عبرت عنه « ذاته الماضية » ، فالأنا « الحاضر يفسر ، والأنا الماضى « موضوع » التفسير والأنا المستقبل « المستفيد من التفسير » ، وكأن الفرد يقول فى « نفسه لقد وعدت بعمل كذا ، وعلى الآن أن أقوم بفعله » (١) . وإذا ما تم نقل التجربة الذاتية ، والإطار الصورى لتأويل الفرد لذاته إلى الخارج ، فإنه يمكن الوصول إلى عدة نتائج ميتافيزيقية .

ويعرض « رويس » للنتائج الميتافيزيقية للتأويل فيرى بأن ما يوصحه التأمل الباطنى للأنا يكون مجسداً فى الخارج وفى تاريخ العالم ، بل وتتشابه العلاقات المتضمنة فى تفسير الذات مع العلاقات التى ترتبط بتاريخ العالم ، فيربط « الحاضر » بالماضى وبالمستقبل ، ويستطيع أى « فرد » يحيا فى الحاضر ويكون على معرفة بوقائع الماضى ، أن يفسرها لفرد

J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p144.

(١)

ما فى المستقبل ، وإذا كان المقصود بالماضى الحوادث المسجلة والذكرات ، فإن المقصود بالمستقبل الحوادث التى يمكن أن تخضع للإرادة الحرة للأفراد ، وتستحق أن ينصح بها الفرد نفسه والآخرين بها . وطالما كانت أحداث وعمليات التاريخ المسجلة فى مكان ما من العالم ، تؤثر على تطورات حوادث المستقبل ، فإن يمكن القول بأن « الحاضر » يفسر الماضى للمستقبل على الأقل فى هذا الجزء من الكون ، ومن ذلك يطابق البناء النفسى والميتافيزيفى لعالم الزمان البناء الثلاثى للتفسيرات والتأويلات الذاتية ، أو التى يمارسها الفرد ذاته (١) . ويقارن « رويس » بين « التأويل » وكل من « الإدراك » و « التصور » فيؤكد أن التأويل عبارة عن مناقشة وليس عملاً فردياً ، ويكون موضوع « التأويل » ذا طبيعة عقلية، وطالما أن التأويل فعل من أفعال العقل ، فإن يعد فى حد ذاته ، علامه (٢) ، ويحتاج بدوره إلى تفسير ، ولذلك يعد التأويل عملية إجتماعية لا تنتهى ، ولا تتوقف عملية « التأويل » إلا بسبب « الموت » أو الانفصال الإجتماعى ، فعملية التأويل تستدعى فى حد ذاته سلسلة لا نهائية من التفسيرات ، وكون التفسير موجهاً لفرد ما ، فإنه يحتاج تأويلاً جديداً من الشخص المطلقى وهكذا ، لذلك إذا كان كل من « الإدراك » و « التصور » يكتسبان ثرائها من الخارج ، فإن التأويل عملية عقلية مستمرة لا تتوقف إلا بإعتراض من الخارج (٣) . وإذا كان عالم « التصور » وعالم « الإدراك الحسى » يحرمان الفرد من معرفة وجود الله ووجود الإنسان ، فإن التأويل قادر على إرشاد الفرد إلى عالم الروح . كذلك يؤدى التأويل إلى رؤية جديدة لنظرية المعرفة ، تختلف عن رؤية أصحاب التصنيف الثنائى لها ، فلا تصبح الحقيقة متغيرة كما يقول البراجماتى وإنما تظل الأحكام الواقعية والعملية ثابتة إلى الأبد ، سواء كانت أحكاماً صائبة أو خاطئة . لأن التأويل يعتمد على تفسير « الحاضر » للماضى ، والماضى ثابت وغير قابل للإلغاء ، وكل حكم عملى وواقعى ، ويستند على « فكرة » ماضية لتوجيه « فعل » فى المستقبل . كذلك إذا نصح « الأنا الحاضر » لفرد ما ، ذاته المستقبلية ، بالقيام بفعل ما ، وتم إتباع الفرد للنصيحة ، فإن الفعل الذى سيقوم به ، يعتبر فعلاً فردياً ، ولذلك يظل فعلاً ثابتاً وغير قابل للإلغاء من حياته (٤) .

Ibid ., p. 148.

(١)

(٢) تشير كلمة علامة لموضوع التأويل عند شارلز بيرس ويستخدمها « رويس » بنفس المعنى

Ibid ., p. 150.

(٣)

Ibid ., p. 150.

(٤)

ويخلص « رويس » إلى ضرورة وجود عالم « التأويل » إلى جانب عالمي الإدراك والتصور ، ولكل وبواقعه النفسية وموضوعاته ، ويختلف التأويل من الناحية الصورية عن « الإدراك » « والتصور » بتضمنه لعلاقة ثلاثية ، ويفترق عنهما من الناحية النفسية في أن غايته وهدفه عملية إجتماعية ، فالتأويل وسيلة لإدراك الوجود الفردي والحياة الباطنية للآخرين ، ويحول الحياة الباطنية إلى حوار ومحادثة ، فليس لدى الفرد معرفة حدسية ، أو إدراك كامل أو تصور كاف لنفسه أو للآخرين ^(١) . كما يؤدي التأويل من الناحية الميتافيزيقية إلى معرفة وجود الحياة الباطنية للآخرين ، وفهم مكونات الخبرة الزمنية ، وما تحويه من تعاقب متراكم من الأفعال اللانهائية ، وإلى معرفة واضحة لكيفية وجود الذات والمجتمعات ، وعالم الروح ، وهي أمور كان لا يمكن الحصول عليها من التصورات الفارغة أو من الإنسياب العشوائي للإدراكات المتداخلة . وإذا كان « برجسون » يطلب تعلم « الإدراك » من الفنان ، فالحقيقة الواضحة أن عمل الفنان يعد دائماً نوعاً من التأويل . يفسر للبشرية حياتها وأعمالها ، ويعتمد على أفرادها في تحديد حياة مجتمعات التفسير . ولا يمارس الفنان عمله بدون غاية وإنما بسبب حبه لوحدة الروح الإنسانية . فبأعمال الفنانين تدخل الوحدة حياة البشرية ، ولا يعتمدون في مهمتهم على الإدراك ، أو التصور ، ولا يتأرجحون بين « تصورات » لا يحبونها وإدراكات يرغبونها ، فالذين ينظرون للمعرفة ككتابين بين الإدراك والتصور ، يكونون في وضع « فاوست » دائماً ، وقد يجدون خبراتهم ذا قيمة فورية ولكن لن يجدوا ما خلق كل الأديان الكبرى ، وكل أنواع الولاء والمعارف الحقة للعالم ، خاصة تلك المعارف التي يقدمها التأويل ، والتي يعبر بها الفرد حياته ، « الإدراكية » والتصورية ، ليعرف كنوز عوالم أخرى ، ويفهم معنى الزمان، ويقرأ معنى الفن والحياة ^(٢) .

والحقيقة وبالرغم من تصريح « رويس » بالإعتماد على « شارلزبيرس » في عرض موضوع التأويل ^(٣) ، إلا أن هذا العرض ، لا يوضح أي الأفكار تنتمي إلى « شارلزبيرس » وأياها ينتمي إلى « رويس » ولذا يبدو أن « رويس » يعرض « شارلزبيرس » من خلاله أو كما يتصوره ، فلئن أشار « رويس » إلى إعتماده على « شارلزبيرس » في فهم طبيعة

Ibid ., p. 160.

(١)

Ibid ., p. 136.

(٢)

Ibid ., p. 116

(٣)

التأويل ، إلا إنه لا يعده مسؤولاً عن النتائج التي إنتهى إليها . لذلك يصعب الفصل بين أين ينتهى « بيرس » وأين يبدأ « رويس » . ويختلف الموقف عند عرض آراء « برجسون » إذا يعرضه مستقلاً ومشيراً إلى عباراته . والحقيقة أن موقف « رويس » من « شارلز بيرس » ، يشبه إلى حد ما موقفه من فلاسفه آخرين . إذا يقرر أنه يعرض الفيلسوف من خلال فهمه وتفسيره ، وكأنه المسئول عن هذا الشرح والتفسيرات أو يقوم بعملية تأويل ، وبذلك يتوحد معه ، بصوره يصعب الفصل بينه وبين الفيلسوف . ويمكن تفسير هذا الموقف ، من الفلاسفه الذين يتوحد بهم ، بأنه يتبع نوعاً من التأويل لفكر الفيلسوف . فيعرضه من خلال فهمه الخاص لفلسفته ، أى يعتبر أنه نوع من « التوسع الذاتى » ، فيصبح فكر الفيلسوف جزءاً من أفكاره الفلسفية . فلا يعرض فكر الفيلسوف فى عبارات الفيلسوف نفسه ، وإنما يعرضه من خلاله كجزء من تفكيره ، فإذا كان « للأنا » أن يتوسع ، فيحوى أفكاره وأحداثاً ، لم تكن تنتمى إليه ، فإن فلسفة « رويس » أفضل مثال على ذلك ، ويتوحد منهجه مع فلسفته . ومن الواضح أن « رويس » يعتبر التأويل عند « شارلز بيرس » بذوراً يمكن أن تثبت نتائج جديدة ، إذا ما تم نقلها من تربتها الذاتية إلى الواقع الخارجى ، أو إذا تم تطبيق إطارها الصورى على العالم الخارجى ، وبذلك يتم الإنتقال من الذات إلى الخارج ، ويتأكد التصور الذاتى للعالم ، والنظرة الذاتية ، والواقع أن تلك المماثلة وذلك الإنتقال قد لا يتسق مع روح فلسفة « رويس » ومثالية المطلقة . إذ يجعل ذلك الإنتقال فلسفة « رويس » أقرب إلى المثالية الذاتية منها إلى المثالية الموضوعات أو المطلقة .

ثانياً : المكونات الأساسية للتأويل

ويؤكد « رويس » أن طالما يعتبر التأويل أحد العمليات المعرفية ، وتعد دراسته عاملاً مساعداً لفهم البحث الميتافيزيقى عن طبيعة وحقيقة المجتمع، فلا بد من معرفة مكوناته الأساسية ، والأساس النفسى لعملية التأويل ، والمتمثل فى إرادة التأويل ، كذلك طالما أن التأويل عملية معرفية إجتماعية ، فلا بد من دراسة طبيعة مجتمع التأويل ، ودلالته النفسية

والأخلاقية ، ورسم صورة للمثل الأعلى الذى يرشد المؤول المحب للمعرفة . الأمر الذى يلقى مزيداً من الضوء على فكرة المجتمع المثالى ، ويوضح الخطوط العامة لميتافيزيقا التأويل . كذلك يرى « رويس » أن طالما كان التأويل عملية معرفية ، فإن كل إنحراف عنه ، يؤدي إليه ، فالتأويل عمل الفلسفة الرئيسى (١) . وإن كان التأويل عملية معرفية إجتماعية ، والإنسان حيوان « مفسر » يحيا فى مجتمع ، ويعتمد عليه فى المعرفة والخلاص ، إلا أن الصورة النفسية « للتأويل » ، يراها الفرد فى داخله ، سواء كان يحيا فى مجتمع أو يعيش منعزلاً ، فيستطيع الفرد أن يقوم بالتأويل دون الإعتماد على الآخرين .

أ - المقارنة

ويعتمد « رويس » على شرح « شارلز بيرس » للعمليات العقلية للتأويل ، كيف تتضمن عملية المقارنة ، بإعتبارها عملية فكرية وحالة شعورية واضحة ، صورة أولية للتأويل ، الأمر الذى يتيح دراسة التأويل ، بعيداً عن المشكلات المرتبطة على الإتصال بعقول الآخرين . وتقوم « المقارنة » كعملية عقلية على الوعى بعلاقات « التشابه والإختلاف » ، فتوقظ صدمه « الإختلاف » « الإنتباه » ، ويجذب « التشابه » غير المتوقع « الإهتمام » ويرى « رويس » أن فعل المقارنة لابد فعلاً كاملاً مجرد ملاحظة التشابه والإختلاف ، وإنما يكتمل بالتساؤل عن ما الذى يشكل الفرق بين « أ » و « ب » أو ما الذى يشكل التشابه بينهما ، فلكى يكتمل فعل « المقارنة » ، لابد من وجود « فكرة وسيطه » أو « ثالث » يقوم بتفسير كل طرف للآخر ، فلئن كانت المقارنة تحتاج لعلاقتى التشابه والإختلاف ، إلا أنهما لا يمثلان فى حد ذاتهما تأويلاً أو تفسيراً (٢) . فالتأويل يخلص الفرد من الحيرة الناتجة من ملاحظة التشابه أو الإختلاف بين موضوعين ، بإرشاده إلى معرفة الطرف الثالث . وفى بعض المواقف ، قد يلاحظ الفرد وجود إختلاف بين موضوعين ، ولكنه لا يستطيع تحديده ، وفى هذه الحالة يكون قد إستخدام « الفكرة الثالثة » ، دون معرفة معناها ، وبالتالي تظل المقارنة ناقصة .

J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p.168.

(١)

Ibid ., p. 173.

(٢)

وتتصف المقارنه فى جميع حالاتها وموضوعاتها ، بأنها تتم بين فكرتين متميزتين ، ومتعارضتين ويحدد التعارض والتمايز بينهما فعل المقارنة ولا يكون الإختلاف بينهما إختلافاً فى الإدراك والتصور وإنما فى تناقض بنائهما وواقعا ونتاجها فتكون العلاقة بينهما كعلاقة « المدعى » و « المدعى عليه » فى المحاكمة ، أى تنتمى كل منهما لتيار فكرى مختلف (١) . ولذلك لا تكمن المسألة فى ربط المدركات بما يناسبها من تصورات أو تحويل التصورات إلى مدركات ، وإنما فى حسم الصراع ، والفصل فى النزاع ، وحلول نوع من التفاهم بين الغرياء ، وتوحيد حياة الفكرتين فى مجتمع ما ، بحيث يتعاونان ويلتحمان فى حياة جديدة - لذلك حل مشكلة المقارنة يتم بفعل جديد ، ويتمثل فى إكتشاف أو إختراع فكرة ثالثة ، تتميز وتختلف عن كلاً الفكرتين موضوعا المقارنة ، وقد تفسر « الفكرة الثالثة » إحدى الفكرتين ، أو فكرة فى ضوء الأخرى ، أو تفسر كل منهما للأخرى والسؤال يفرض نفسه الآن ، ما الذى يتم إكتسابه أو الحصول عليه من المقارنه ؟ أو طالما أن المقارنه تتضمن فعلاً لتفسير فكرة فى ضوء الأخرى ، فما الهدف الباطنى لإرادة التفسير ؟ .

إن الدوافع التى تجعل مقارنه ما بين فكرتين ، ذا أهمية للفرد القائم بالمقارنة ، تتمثل فى أن المقارنه ، تؤدي إلى فكرة جديدة ، وإلى ثالث وإلى تفسير لفكرة ، ودائماً ما تولد هذه الفكرة الجديدة ، درجة من الوضوح حول وجود الفرد ومعناه ، فيبين له الثالث الجديد نفسه كما هى ، ويرى عالمه الفكرى ويحقق له التحديد والتحكم الذاتى ، فيتعلم كيف يربط مدركاته الجزئية ، وكيف يحيا كما لو كان للحياة هدف واحد . والواقع أن هناك الكثير الذى يتعلمه الفرد ، عندما يعرف كيف يكون قادراً على جمع ثلاثة أفكار فى عقله فى وحده واحده (٢) . ومن يصل إلى معرفة « الفكرة » التى يفسر بها فكرة ما فى ضوء فكرة أخرى ، يكتشف ماهية العقل ، إن المقارنة عبارة عن حدس عقلى أو عقل ملاحظ أو أداة تسترشد بها كل العقول الرائدة فى العالم ، فالمقارنة أساس العملية المعرفية (٣) . فلقد لاحظ « داروين » وقارن وإكتشف الوسط ، وجمع الأفكار المتناقضة فى وحدة واحدة ، وواجهه النبى « عاموس » التناقضات الأخلاقية والدينية فى عصره ، وقدم لعصره

Ibid ., p. 184.

(١)

Ibid ., p. 185.

(٢)

Ibid ., p. 188

(٣)

« فكره الله » الذى يسعد بالصلاح كفكرة وسط، الأمر الذى أدى إلى إتخاذ الدين وجهه جديدة فى العصور اللاحقة ، وإذا ما تم التفكير فيما كتبه « بولس » عن المحبة والبعث ، يلاحظ الدور الكبير للمقارنه والتوسط . والحقيقة أن « التؤيل » قد قدم للبشرية معارف لا حصر لها فى العلم والدين والفن ^(١) . وجاء كل فكر خلاق من المقارنة بين فكرتين عظيمتين ومعرفة « الفكرة الثالثة » التى تتوسطهما . وغالباً ما تستعمل كلمة حدس أو « رؤية » أو « بصيرة » للتعبير عن هذا النوع من الفكر ، الذى ينظر من أعلى لفكرتين ويكتشف الثالث بينهما . وإذا كانت كلمة « حدس » تستخدم إلى الإشارة إلى هذه القدرة العقلية ، فإنه لا يعنى إدراكها أو تصوراً ، أن المقارنة تؤدي إلى رؤية الحلول وإكتشاف الوسائط والوحدة ، فهى أساس العملية المعرفية التى يتم بها فهى الحياة والتعامل معها .

ب : إرادة التؤيل

ويرى « رويس » أن عند الإتجاه لدراسة الحياة النفسية للمؤول ، فإن إرادة التؤيل تظهر كنوع من الرغبة فى الإعتداد بالذات والثقة بالنفس ، فمن يقارن بين فكرتين ، تحقق له رؤيتها من أعلى ، نوعاً من الوحدة الفكرية والذاتية ، ويعتمد إكتساب الفرد لمثل هذه « الرؤية » أو « البصيرة » على عوامل نفسية متعددة ، وعلى مدى نجاح الفرد فى إكتشاف الوسائط المناسبة . ولذلك يعد نجاح الفرد فى المقارنة وإكتشاف الثالث أمراً حيويماً لحياة الفرد النفسية . وبالرغم مما قد يوجه من نقد للمقارنة ، بأنها لا تحقق الحصول على حقائق مطلقة ، بسبب إستمرارية إكتشاف « الثالث » إلا أن ذلك ليس صحيحاً ، فالمقارنة قادرة على إمداد الفرد بالمعرفة المحددة والضرورية وتعتمد فى ذلك على الأفكار التى تتم المقارنة بينها وعلى الغرض من المقارنة ، ومهارة الفرد فى الوصول إلى تحقيق الوحدة ، والحقيقة إن عند القيام بعملية « تؤول » بين مركبات فكرية ، وإستخدام « الرموز » ، فإن النتائج التى يتم التوصل إليها ، تكون صادقة ومحددة ، طالما كانت الفكرتان المتقابلتان اللتان تجرى بينهما المقارنة محددين . وقد تكون النتيجة جديدة فى خبرة الفرد ^(٢) . إلا أنها تتصف فى

Ibid ., p. 190.

(١)

Ibid ., p. 192.

(٢)

نفس الوقت بالإطلاق والثبات (١) . والواقع أن المقارنة عملية إستنباطية ، تعتمد على سلسلة من التجارب الفكرية ، ولما كان الإستنباط لا يهتم بصدق النتائج ، بقدر إهتمامه بإتساقها مع المقدمات التي جاءت منها ، فإن إكتشاف واقعة أن مجموعة من المقدمات تلزم عنها نتيجة معينة ، لا تتحقق « بالإدراك » أو « التصور » ، بل يتم إكتشافها بالتأويل ، والحقيقة أنه من الخطأ التصور بأن الإستدلال لا يؤدي إلى معرفة جديدة ، بسبب تضمن النتيجة في المقدمات ، فلقد ثبت أن الإستدلال قادر على الوصول إلى نتائج جديدة في مجال الرياضيات البحتة ، وإمتلاكه لخصوصية لا حدود لها .

وبالرغم من أن نتائج التأويل قد تبدو نسبية ومؤقتة في حالة فردية معينة ، نتيجة لعدم وضوح الفكرتين اللتين تتم المقارنه بينهما ، إلا أن نتائج المقارنه يمكن أن تؤدي إلى حقائق مطلقة يستحيل نقضها ، كذلك قد يكون فعل المقارنه أو الإستنباط مؤقتاً وعارضاً ، وقد تختلف نوافع الفرد القائم بالمقارنه أو الإستنباط ، ولكن بمجرد إكتشاف « الثالث » أو « التفسير » ، فإنه يعبر عن حقيقة محددة تماماً ، وسبب ذلك أنها تعد حقيقة مشروطة (٢) . كذلك توصف نتائج التأويل ، بالإطلاقية والثبات ، لأنه مهما كان المؤول ، فإن « التأويل » يرشد إلى القيام بعمل فكري فردي محدد ، وقد يحقق الفعل في اللحظة التي يتم إنجازها فيها بعض النتائج الفكرية القيمة ، ولما كانت الأفعال لا تنسخ بعد خروجها إلى حيز التنفيذ ، وكان « التأويل » دافعاً للقيام بعمل فكري ناجح ، فإن التأويل يعد صحيحاً ومطلقاً مثل الفعل الجيد ، الذي إذا ما تحقق لا رجعة ولا نسخ له . وتكمن قيمة المقارنات في حياة الفرد الباطنية ، في أنها أفعال تعبر عن بصيرة وحس يطل من أعلى وينسج وحدة تتجمع فيها الأفكار المتناقضة ، وما كان لهذه الوحدة أن تتحقق إلا بالمقارنة . قد يكون للتأويل دقة الرياضيات ، أو صفة الملاحظة سريعة الزوال ، وقد تتعدد النوافع إليه ، وقد تختلف موضوعاته ، إلا إنه في جميع الحالات يمكن حدوث المقارنة والوصول إلى حقائق صحيحة ومطلقة . إن المقارنة تؤدي إلى إتساق الفكر ، وتحقيق بصيرة تنظر من أعلى للأفكار المتضاربة ولغرائب حياة الفرد الماضية وتناقضاتها الداخلية ، وتفسر أفكاراً لأفكار ، كما فسر الأنبياء والشعراء ، ما كان مختلفاً وغريباً من الأفكار ، إن خلاص البشرية يعتمد على التأويل وعلى القدرة على المقارنات لتفسير الحياة الفكرية للبشرية (٣) .

Ibid ., p. 192.

(١)

J. Royce : The Problem of Christionty p.II p. 195.

(٢)

Ibid ., p. 200.

(٣)

ويختلف وضع الفرد المؤول عندما يقوم بتأويل عقل جاره عنه عندما يكون مفسراً لفكرتين من أفكاره بسبب درجة الوضوح، لانه في تلك الحالة، يقوم بتفسير « عقل الجار » من خلال العلاقات و « الرموز » الدالة عليه، ثم ينقل التفسير إلى عقل ثالث، وبذلك يتعامل « المؤول » مع عقليين مختلفين في الأفكار عن أفكاره . فيكون لديه فرق في وضوح الرؤية بسبب الظروف التي تفصل الافراد . وعندما يشرع الفرد في تأويل « عقل جاره » فإن تأويله يظل بعيداً عن غايته . لصعوبة تحقيق الرؤية الواضحة للمقارنه، لأنها تكون في أفضل حالاتها جزئية وغير يقينيه . والواقع أن الفرد إذا إستطاع تحقيق تأويل ناجح بين « عقول » أو « أفكار لا تنتمي إلى أفكاره وإستطاع رؤية وحدتها مباشرة ، فإنها تتحول وتصبح جزءاً من أفكاره ، أما تلك الأفكار التي لا يستطيع رؤية وحدتها من أعلى ، فإنها تظل من وجهة نظره غريبة عنه ، ولذا غالباً ما يفسرها بأنها تنتمي لذات فرد آخر ، لذلك معرفة الفرد الجار ، لا يكتسبها « بحدس مباشر » وإنما من خلال التأويل . ولما كان الفرد في ظل الظروف الإنسانية ، لا يستطيع تحقيق المواجهة المباشرة سواء مع « فكر الجار » أو مع فكر الفرد الثالث « الوجه » له التأويل . إذ يظهر المؤول والعقل موضوع التفسير والطرف الثالث الوجه له التفسير ، كنفوس ثلاث ، معزولة عن بعضها البعض ، بفجوات لا يمكن عبورها بسبب الظروف الإنسانية والطبيعية ، ومتباينة بسبب إختلاف دوافع أصحابها ، لذلك عندما يسعى فرد ما لتفسير عقل جاره لعقل ثالث ، فإنه يكون ساعياً لتكوين مجتمع من النفوس الثلاث ، وإذا كان مخلصاً في تأويله ومجبا للحقيقة فإن دافعه للتأويل ، يكون دافعاً روحياً ، يهدف لتخطى تلك الفجوات التي تفصل النفوس الثلاث . وبذلك تكون الغاية من التأويل مرتبطة بمثال أخلاقي ، يتمثل في تحقيق الفهم المتبادل والوحدة ، وتكوين مجتمع روحى (١) .

ويؤكد « رويس » أن هذه الوحدة لا تعد وحدة من النوع الصوفى ، التى تنوب فيها النفوس ويفقد الافراد فيها إستقلالهم ، وإنما تعتبر نوعاً من الرؤية العامة أو البصيرة الكلية ، التى يتمتع بها كل طرف من أطراف التأويل . فعندما ينظر الفرد المؤول لجاره كعالم من الأفكار والمعانى والأهداف ، فإنه لا يشعر بالغبية التامة تجاه هذا العالم ، لأنه قد سبق له الإحتكاك ، بهذا العالم الفكرى عندما فسر ذاته لنفسه . ولما كان الجار عبارة عن عالم من الأفكار ، يقع خارج مجال فكر الفرد ، وليس لديه صورة واضحة عنه ، فإن الفرد لا يقنع بهذا الجهل ويعزله وغبية الجار ، ويسعى للوحدة معه . وإذا ما إستطاع الفرد تفسير عقل وفكر جاره ، لفرد ثالث ، فإن أفكار الفرد عن جاره ، تكتسب نفس الرضوح الذى يكون لأفكاره الخاصة عن نفسه . ويتحقق لدى الفرد رؤية واضحة لأفكاره ولأفكار الفردين الآخرين . إن هذه الرؤية تشبه الرؤية الشاملة ، أى كمن ينظر من أعلى الى أسفل ، فلا تودى الى التداخل وإنما تحافظ على إستقلال كل طرف من أطراف التأويل . ويرى « رويس » أن لما كان لكل طرف من أطراف التأويل الثلاثة ، وإرادة ترغب فى التحقق ، فالقائم بالتفسير يسعى لإشباع رغبته بتفسير عقل الجار ، والجار لديه رغبة فى أن يتم تأويله ، ويرغب الطرف الثالث فى أن يفسر له الجار بواسطة القائم بالتفسير ، فإن القائم بالتأويل إذا ما حقق نجاحاً واكتسب الرؤية الواضحة ، فإن هذه الرؤية تحقق إشباعاً للإرادات الثلاث ويشكل ثلاثتهم مجتمعاً ، يسمى « مجتمع التأويل » أو « جماعة التفسير » . إن عند القيام بالتأويل يصبح هناك هدف واحد تجاه « حدث » ما ، توجه له جهود كل المشتركين فى التأويل . ويعمل الكل لتحقيقه . وتبين الخبرة الذاتية للفرد ، إمكانية تحقيق مثل هذا الهدف ، أى أنه لا يكون تصوراً مجرداً أو ادراكاً مباشراً ، وإنما هدف يقبله كل فرد ، على أنه غايته ومراده ، فيستطيع التخطيط له ، ويراه كحدث مستقبلى مشترك . ولما كان كل فرد ، يعتبر تفسيره لجاره ، نوعاً من الإمتداد الذاتى ، فإن فى مقدور الفرد موضوع التفسير

« والمستقبل » للتفسير ، أن يؤول كل منهما نفسه ، وبذلك تتحدد شروط تعريف « مجتمع التأويل » . فهو مجتمع تهدف فيه ، عدة نفوس ، إلى تكوين حدث فكري مستقبلي مشترك ، يستطيع كل فرد فيه ، أن يبديل ويغير « نوره » فيه ، تبعاً لرغبته ، بدون أن تتغير طبيعة المجتمع ، فيمكن لكل فرد من الأفراد الثلاثة المشتركين في مجتمع التأويل ، أن يقوم بنور المؤول ، ويظل المجتمع الجديد الناتج من تبديل الأدوار على علاقة بالمجتمع الأول (١) . وأما بالنسبة لمعيار صدق الفكرة التي قد تنتج من التأويل ، فإنه يتمثل في وضوحها لدى كل طرف من الأطراف الثلاثة ، وإن توصف بالمصادقية لما تحققه من أعمال أو إدراكات حسية ، وإنما بتحقيقها لرغبة وإرادة كل طرف منهم ، وتحقيقها الوحدة الروحية بينهم (٢) .

ويعرض « رويس » للقيمة الأخلاقية والدينية لمجتمع التأويل ، فيرى أن القائم بالتفسير في أي مجتمع تأويلي ، يحتل المكانة الرئيسية ، لأن به تتحقق الوحدة الفكرية للمجتمع ، ويتحول الطرفان الآخران إلى فكرتين من أفكاره ، يقارن بينهما ويكتشف الوسيط . وبذلك يعتبر روح المجتمع والمسيطر على ولكن . كذلك يعتبر في نفس الوقت خادماً للمجتمع ، لأنه لا يستطيع تحقيق هدفه من التأويل ، إلا إذا حدث نوع من التوحيد الكامل بين أفكاره وأفكار الطرفين الآخرين ، ولا يتم هذا التوحيد الفكري إلا بنوع من الاستلام الذاتي (٣) من جانب القائم بالتأويل . لذلك يعد القائم بالتأويل « رئيساً » « وخادماً » في آن واحد . ويرى « رويس » أن البشرية لا تحتاج إلا لمجتمعات التأويل لتحقيق الخيرية أو ما تعتبره البشرية مثلاً أعلى للخير لأن هذه المجتمعات تتمتع بوضوح الرؤية والهدف ووجود المحبة . ولما كان التأويل العامل الانساني في كل العمليات المعرفية والمحقق لأنقى صور المحبة للمجتمعات ، فإن الولاء لمجتمع التأويل يتدخل في كل صور الولاء الأخرى ، وإن يستطيع أي فرد محب للإنسانية ، التعبير عن هذه المحبة ، إلا بزياده ونشر إرادة التأويل بين الأفراد ، حيث تلهم كل دارس للإنسانية ، وتحياحيث كانت المحبة (٤) . ولذلك عندما قالت المسيحية بالأمل في مجتمع محبوب . فإن مثل هذا المجتمع المحبوب ، لن يكون إلا « مجتمع تأويل » . وتعد الصورة المثالية لهذا المجتمع ، أفضل تعبير عن الكنيسة المثالية ، التي يمكن تحقيقها

Ibid ., p. 214.

Ibid ., p. 216.

Ibid ., p. 218.

Ibid ., p. 219.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

فى العالم الأرضى ، أو فى عالم فكرى فوق إنسانى ، عالم فكرى شامل ، يستمد منه الفرد المعرفة ، ويكون موضوعاً لها فى آن واحد . ويعد مجتمع التّأويل أفضل وسيلة للإدراك العقلى الواضح للطبيعة الإلهية . لأن إذا تم إدراكها فى صورته المفسر ، الذى يفسر الكل للكل ، فيفسر كل فرد للعالم وكل عالم النفوس للفرد ، تحل مشكله الوحدة والكثرة فى المجتمع . وتصبح التصورات والحدوس الروحية واضحة ومتميزة فى حياة « المفسر » وخلالها ، يخدم ويرأس الكل ، ويعبر عن إرادته من خلالهم ، ويحب ويحترم إرادة إخوانه ، ويحظى فيه (المجتمع) كل من الفرد والمجتمع والمطلق بالتعبير الكامل والتصالح والتميز. والحقيقة أن فى إرادة التّأويل يقترب الإلهى من الإنسانى ، وإذا ما تم فهم التّأويل فهماً صحيحاً ، وتصور مجتمع التّأويل باعتباره شاملاً لكل أفراد المجتمع وموحداً بينهم بالأمل المشترك فى تحقيق الفهم المتبادل ، ثم نمتى الحب لهذا المجتمع ، فإن هذا الحب يكون قادراً ، على توضيح معنى « الكنيسة العالمية » ومجمع القديسين والله « المفسر » ، وعلى تحقيق الوحدة الفكرية بينهم . وإن كان فهم هذه المثل المسيحية الثلاثة يساعد على وضوح الفكر ، وتحقيق حل لمشكلات ميتافيزيقية، فإن فهم الفرد لها ، يمكن أن يتحقق إذا استطاع إدراك المعنى الحقيقى لما قصده « بولس » حينما قال « لهذا السبب دع الذى يتحدث بلغات (السنة) يصلى من أجل تفسيرها » ، فتلك الكلمات تحوى كل معانى الفلسفة والدين (١) .

بعد هذا العرض لمعنى التّأويل وإرادته ومجتمع التّأويل ، من الواضح أن « رويس » ، سعى للتأكيد على قيمة الفكر . وإذا كان « ديكرت » يقول « أفكر فأنا موجود » فإن « رويس » يقول « أنا أوّل أو أفسر فأنا موجود » . فيعرف الأفراد أنفسهم وطبيعة وجودهم ووجود مجتمعاتهم وعالمهم من التّأويل . وبالرغم من أن التّأويل عملية معرفية إجتماعية ، إلا أن الفرد يستطيع تفسير حياته الباطنية ، ويصل الى الوحدة الكامنة وراء أفكاره ، فتحقق الوحدة الشعورية (٢) ، وبذلك يصبح التّأويل سلوكاً فردياً واجتماعياً فى آن واحد . ولتوضيح أهميه وقيمة التّأويل ، بدأ رويس بضرب عدة أمثله واقعية لهذا النمط

Ibid ., p. 221.

(١)

J.Royce : The Problem of Christianity p.II pp.130-150.

(٢)

المعرفى ، وبذلك إنتقل من الفكر إلى الواقع ، ثم إنتقل من الفكر الى الفكر بأمتله من قضايا العلم والفن والأدب ، وأخيراً ضرب أمثلة من قضايا الإيمان عند النبى « عاموس » والقديس « بولس » وبذلك ينتقل من الفكر الى العقيدة . وبذلك تصبح العقيدة أو الدين خاتمه المطاف والدليل والأمثلة التى ليس بعدها شىء . وربما قصد « رويس » من تعدد الأمثلة توضيح قيمة التأويل وإعتباره عمل الفلسفة الأساسى ، وإعتمد فى توضيح هذه القيمة على المقارنة بين التأويل كعملية معرفية ، وعمليتا الإدراك والتصور ، وأعتبر أن التأويل يتميز باكتشاف الفكرة الثالثة ولكن السؤال الذى يفرض نفسه ، إذا كان التأويل يقوم على المقارنة وإكتشاف الثالث ، فما هى الفكرة الثالثة ، التى نتجت من المقارنة بين التأويل ذاته وكل من الإدراك أو التصور . إن « رويس » لم يوضح هذه الفكرة الوسيطة بالرغم من قيامه بالمقارنة بين التأويل كعملية معرفية والعمليات المعرفية الأخرى ، وربما طبقاً لوجه نظره أنه يمكن معرفة هذا الوسط بصورة ما ، ولكنه قد يزال غير واضح ، ويظل العارف منتظراً لفرد آخر ، يمكن أن يقوم بتفسير هذا الوسط ، فمتى يظهر هذا المفسر ١٩٩ .

والواقع أن التأويل يشبه الجدل الهيجلى إلى حد كبير ، وإذا لم يكن فى خطواته فإن يحيا روحه . وبالرغم من تأكيد « رويس » على وجود فرق بين التأويل عند « شارلز بيرس » والجدل عند « هيجل » على أساس أن « بيرس » فى قوله بالثالث الذى يقوم بالتفسير والوساطة ، لم يعتمد على « هيجل » ، ولم يتأثر عند كتابة التأويل « بهيجل » ، وأن أمته هيجل التوضيحية كانت تاريخية وأخلاقية ، بينما أمته « بيرس » مستقاه من الرياضيات والحالات الإجتماعية ، بل ونظريته « شارلز بيرس » بأصلها التجريبي ، تبشر بحل مسائل كثيرة تركها هيجل بدون حل (١) . إلا أن « رويس » لم يوضح هذه المسائل ، ولم يعرض لفروق جوهرية بين التأويل والجدل ، أسوة بما فعل بمقارنة التأويل بالإدراك والتصور . كذلك إذا كان التأويل عملية مستمرة ، فإن هذه الخاصية تجعله أقرب إلى الجدل الهيجلى . وبالرغم من محاولة رويس توضيح الفرق بين تأويل « بيرس » وجدل « هيجل » ، إلا أن العلاقة الثلاثية والإستمرارية وإثراء المعرفة ، سواء باكتشاف المركب عند « هيجل »

J. Royce : The Problem of Christianity p.II pp. 187-190.

(١)

أو الثالث الوسط عند « بيرس » يجعلهما فى خندق واحد ، وتجعل التشابه أقرب من الإختلاف ، وإن كان التأويل أوسع وأشمل من الجدل .

والحقيقة اذا كان « رويس » يعتبر مجتمع التأويل أفضل تعبير عن الكنيسة المثالية فمن الواضح أن إعتبار الله مفسر ، يحقق تشابهاً بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية ، ونوعاً من الإتصال المباشر بين الله والفرد ، فيختفى دور الكنيسة بمعناها التقليدى بإعتبارها وسيطاً بين البشر والله ، فإن كان مجتمع التأويل ، يقدم تصوراً مثالياً لفكرة الكنيسة ، بإعتبارها المجتمع المحبوب ، إلا أنه يقضى عليها بإعتبارها مؤسسة وسيطة لها طقوسها وتقاليدها . وتختفى الكنيسة التاريخية بمعناها التقليدى ، ويحل مكانها مجتمعات التأويل ، بخصائصها ووافعها الإنسانية . ولما كن التأويل هو العامل الإنسانى والأساسى فى المعرفة بكل ألوانها ، ولا يعتمد الانسان على إدراكات من الخارج أو تصورات تفرض عليه ، فهو القادر على تحقيق المعرفة والخلاص ، فلا ضرورة لوجود الكنيسة التقليدية ، وإذا كان تصور دور الكنيسة ضرورياً للعقيدة المسيحية ، فإن وجودها لا بد أن يكون على صورة مجتمع للتأويل . وكذلك إذا كان مجتمع التأويل يحقق خلاص الفرد ، فإن المشكلة المتعلقة بطبيعته المسيح تختفى ، ويصبح المسيح فرداً فى مجتمع التأويل وتحل مشكلة طبيعة الالهية . وإذا كان مجتمع التأويل يقوم حلاً لمشكلة الوحدة والكثرة ، والمؤول روح المجتمع ، ويحقق الوحدة الفكرية بين أفرادها ، فإن مجتمع التأويل ، يعد أفضل تعبير عن فكرة ومعتقد « الروح القدس » وبذلك يصبح التأويل محاولة لتعقيل العقائد المسيحية وحل مشكلاتها .

ثالثاً : التأويل النظرية والتطبيق

إذا كانت الكنيسة مجتمعاً مثالياً ، تعبر فيه الروح عن نفسها ، فلن يمكن فهم وإدراك معنى ذلك إلا فى ضوء نظرية مثالية عن « العالم الواقعى » ، وأثبت إن الكون كله « مجتمع وكائن إلهى » ، حتى يمكن أن تنتشر الروح فيه . وإذا كان قد وضحت قيمة المحبة فى

تحقيق وحدة الحاضر ، وتم معرفة أن هذه المحبة للمجتمع ، لا بد وأن تكون محبة من أعلى ، أى محبة للكون كله (١) ، فإن الحسب يحتاج إلى إثبات أن للكون طبيعة أهية وإجتماعية ، وأن للعالم ذاته نفس طبيعة المجتمع . ولذلك يرى « رويس » أن هناك حاجة لنظرية ميتافيزيقية لمعنى العالم الواقعى . ولما كانت المعرفة تتحقق بالتأويل ، ومن خلال مجتمعات التأويل ، فإن الإعتقاد بوجود العالم ، لا ينفصل عن الإعتقاد بوجود مجتمعات التأويل بل ويفترض وجودها وجوداً مسبقاً .

أ - العالم مجتمع تأويل

إن وجود مجتمعات التأويل ، يعد دليلاً على الصفة الإجتماعية لمعرفة وجود العالم الطبيعى ، ففى مجال العلم ، لا يكتسب أى كشف علمى صفة العملية ، إلا إذا حصل على موافقة أعضاء المجتمع العلمى (٢) . وتعتبر مقولة الفهم العام القائلة ، « بعدم وجوب حكم الفرد على حالته الخاصة عن الصفة الإجتماعية للمعرفة » . فلا يحق للقاضى الحكم فى قضية يكون طرفاً فيها ، وغالباً ما يؤثر قرار شخصى لفرد ما فى حالته الخاصة ، على مصير أمة بأكملها . لذلك لا بد من تكوين مجتمعات التأويل . ولئن كان المجتمع يسمح للفرد فى بعض الحالات بإتخاذ قرارات خاصة (القائد مثلاً) ، فإن غالباً ما يكون التدريب الإجتماعى قد أعد الفرد لأن يقوم بعمل مجتمع التأويل . والحقيقة أن إتفاق العلماء والفهم العام على أهمية رأى الآخرين ، والاعتقاد بوجود مجتمعات التأويل ، يرتبط بالنظرة للعالم الطبيعى . فالفهم العام ينظر للعالم الطبيعى كموضوع لخبرة مشتركة بين الأفراد . وعندما يعتقد فردان فى وجود موضوع طبيعى ، « كالقارب » مثلاً ، فإن مصدر الإعتقاد فى وجوده يعتبر تأويلاً أو تفسيراً . تفسير يوجهه كل منهما للآخر ، وفكرة بسيطة بين فكرتين ، أو نظرة شاملة ، إكتسبها كل منهما بالمقارنة . لذلك فالإعتقاد فى وجود القارب ، جاء نتيجة عملية معرفية ذات ثلاثة أطراف . فيكون هناك « القارب » الذى يراه الفرد ويلمسه ، ويظهر

J.Royce : The Problem of Christianity p.II pp.220-230.

(١)

Ibid ., p. 233.

(١)

له محققاً لأفكاره ، ويكون هناك في نفس الوقت القارب المشترك ، موضوع التويل والذى ينظر إليه الفرد ، كموضوع لخبرته ولخبرة الآخر . ويرى « رويس » أن إذا ما تكون الاعتقاد في وجود « القارب المشترك » ، والذى يستطيع أى فرد منهما ، التحقق من وجوده بخبرته الفردية ، فإنهما يشكلان مجتمع تويل عنهما يتحدثان عنه ، وإذا ما نجح هذا المجتمع في بلوغ هدفه ، فإنهما يثقان في أن القارب له وجود واقعى وحقيقى ، وبالرغم من أن كلا منهما ، يستطيع التحقق من فكرته الخاصة عن القارب ، ولا يستطيع التحقق من أفكار الفرد الآخر عنه ، إلا أن كلا منهما ، باعتباره « مفسراً » ، سواء لنفسه أو للآخر ، يعتقد بأن لهاتين الخبرتين الفرديتين موضوعاً مشتركاً (١) .

كذلك إذا أعلن أحد العلماء ، عن إكتشافه لواقعة طبيعية ، فإنه لا يكون معبراً عن نتائج خبرته الشخصية ، بل يكون « مؤولاً » ، لأن إكتشافه ، لا يحتل مكانه في العلم الطبيعى ، إلا إذا حظى بموافقة مجتمع العلماء ، الذى يتكون من العالم « المكتشف » ، « وإكتشافه » ، « والناقد » الذى يحكم عليه (٢) . ويكون وجوده فرضاً مسبقاً ، لأى بحث علمى في وقائع العالم الطبيعى . وأما بالنسبة لموقف الفلاسفة ، وعدم تكوينهم لمجتمع تويل شبيه بالمجتمع العلمى ، لكثرة الخلافات بينهم ، فالحقيقة أن الفيلسوف « مؤول » ، والتويل عمل الفلسفة . وبالرغم من قول بعض الفلاسفة ، بالتصورات فقط ، أو بالإدراكات فقط ، كأساس لمعرفة الواقع ، إلا أن هؤلاء الفلاسفة ، يقومون بعمل المفسرين . ولم يكن جهدهم قاصراً على مجرد إدراك العالم أو نسج نظرية في « التصورات » . وإنما محاولة لتفسير معنى الحضارة التى ينتمون إليها ، ففسروا كل ما فى الكون ، وكل ما إعتقدوا فى وجوده ، سواء كان إنسانياً أو إلهياً . إن فكر الفيلسوف فكر تويلى ، يخاطب عقلاً ما ، ويفسر الآخر ، ويسعى إلى وحدة تماثل ، تلك التى يسعى إليها المجتمع التويلى . ويرى « رويس » أن الواقع لا يمكن التعبير عنه فى صورة إدراك أو تصور ، ولا يمكن تفسير طبيعة الواقع فى ضوء الأعمال المترتبة على فكرة واحدة ، لأن كل تفسير للواقع فى ضوء الفكرة الواحدة ، يفترض نوعاً من التباين بين فكرتين ، أو بين الكائن والممكن أو بين الواقع

Ibid ., p. 243.

(١)

Ibid ., p. 249.

(٢)

والمثال (١) . لذلك إن وجود مجتمعات التأويل ، وجود واقعى سواء فى العلاقات الإجتماعية أو فى علاقة الأفراد بموضوعات العالم الخارجى ، وتفرض الأبحاث العلمية وجودها ، ووجود إرادة التأويل . وأى محادثه بين فردين ، أو حوار داخلى فى الوعى الذاتى ، يتم باعتقاد مسبق كامن تحت الشعور ، بأن الإنسان عضو فى « مجتمع التأويل » . ويرى رويس أنه إذا كانت « المحادثة » والبحث العلمى والفلسفى ، عبارة عن محاولات جادة ونابعة من حب للحقيقة والمعرفة ، فإن الصورة العامة لآى مجتمع منها ، تشبه صورة الكنيسة البولسية ، لأن هناك العضو الذى يحض على الفضيلة ، والفرد المستقبل ، وروح المجتمع ، الذى يقوم بالتأويل . والحقيقة أن السؤال عن كيف تتم معرفة وجود أى مجتمع تأويل ، وعن الضمان فى صحة الإعتقاد بوجود واقعية مجتمع الكنيسة ، يؤدى إلى الأنتقال إلى قلب الميتافيزيقا ، ومعرفة المقصود بالوجود الواقعى (٢) .

ويؤكد « رويس » أن الإعتقاد بوجود أى عالم واقعى على الإطلاق ، ينشأ من وجود موقف يحتاج إلى التفسير ، والمقصود بالعالم الواقعى تفسير وحل لهذا الموقف وإشكاليته . وبناء على ذلك إن من يدرس « مشكلة الواقع » ، يقارن على الأقل بين فكرتين أساسيتين ، فكرة الخبرة الحاضرة ، وفكرة الغاية أو الهدف منها ، فمشكلة الوجود الحقة تتمثل فى الموقف المحير بين فكرتين رئيسيتين ، وطالما يقارن الفرد بين ما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون ، فإن ما يعنى بالعالم الواقعى ، يكون عبارة عن تأويل وتفسير لهذا التناقض أو عبارة عن حل لهذا الموقف . وأيا كانت طبيعة العالم الواقعى ، فلا من التعبير عنها فى ضوء هذا التعارض بين الأفكار . فعند دراسة الواقع تقف الفكرتان المتعارضتان وجهاً لوجه ، ومهما تعددت مظاهر التناقض ، فإن المشكلة العامة التى تمثلها تلك التناقضات ، تشكل مشكلة العالم ، ويكون السؤال عن معنى العالم الواقعى ، سؤالاً عن التناقض ومعناه ، فمشكلة التناقض هى مشكله العالم . ولا يمكن لآى فكرة من الفكرتين المتناقضتين ، أن تفسر نفسها أو تحل مشكلتها وحدها ، لأنها تحتاج إلى وسيط ، يفسر كل منهما إلى الأخرى (٣) . ولقد ظهرت مشكلة الوجود « فى الميتافيزيقا ، فى صورة التباين بين المظهر والحقيقة ،

Ibid ., p. 265.

(١)

Ibid ., p. 267.

(١)

Ibid ., p. 269.

(١)

وكانت تعتبر التناقضات هي الظاهر ، وظهر التساؤل عن العالم الواقعي عند الإحتكاك بهذه التناقضات ، وعندما يسأل فرد ما عن ماهو العالم الواقعي الحقيقي ، فإنه يسأل عن حل لتلك التناقضات ، وعن تفسير لها . لذلك أى تعريف للعالم الواقعي ، لا بد وأن يقدم حلاً لتلك التناقضات ولشكلة الفكرتين المتعارضتين . فإذا كان العالم الواقعي هو ما يمكن التعبير عنه بفكرة وسيطة تقارن وتوضح التناقض بين فكرتين متعارضتين ، عندما ينظر لها متحدة معهما ، وكان أى تفسير ، لا يتم إلا إذا كان « المجتمع » المناسب قائما وواقعيًا ، ولا يتصف بالصدق ، إلا إذا حقق هذا المجتمع التؤولي غايته ، فإن العالم الواقعي « مجتمع التؤول » ، الذي يتكون من فكرتين متناقضتين وفكرة وسيطة ، أو « المفسر » وإذا فسر التؤول كل الوجود ، فإن المجتمع يصل الى غايته ، ولن يوجد عالم واقعي ، إلا إذا كان « المفسر » و « المجتمع » واقعيين ، وإذا لم يوجد ، لن يكون هناك أى عالم واقعي على الإطلاق (١) . ولما كانت « عملية التؤول » تتضمن سلسلة لا نهائية من أفعال التفسير ، وتعترف بتنوع وإختلاف النفوس ، التي تفسر بعضها البعض بالتبادل ، ويكون العضو الرئيسى روح المجتمع ، فإن الكون كله مجتمع تؤول ، وتوحد حياته كل الإختلافات الإجتماعيه ، وكل المجتمعات الإنسانية ، وتدرسه العلوم الاجتماعية والتاريخية ، ويصبح تاريخ الكون تاريخ هذا المجتمع التؤولي كله (٢) . وما العالم الواقعي إلا مجتمع تؤول .

ب - مشكلات الفلسفة والحياة

وذلك يؤكد « رويس » أن الإعتقاد فى وجود العالم الطبيعى ، لا يمكن أن يفصل عن الإعتقاد فى وجود وحقيقة مجتمع التؤول . وإذا كان المذهب المسيحي فى الحياة ، مرتبطا بالمثل الأعلى للمجتمع العالمى ، والعالم فى ذاته وكيته مجتمع ، فلا بد من توضيح العلاقة بين المثل الأعلى للمجتمع ، ونظرية العالم تؤول ، أو بين « النظرية الميتافيزيقية » والتجربة الدينية ، ، ولن يتم توضيح هذه العلاقة إلا بالمقارنة بينهما . ويرى « رويس » أن من الضرورى ، قبل إجراء المقارنة ، لا بد من توضيح بعض تطبيقات نظرية « العالم مجتمع »

Ibid ., p. 270.

(١)

Ibid ., p. 271.

(٢)

على بعض مشكلات الفلسفة والحياة ، وإلا أصبحت النظرية عقيمة ، ومجرد تجريد لا قيمة له . ولأن إذا صحت النظرية ، يكون العالم كله محكوماً بمقولات إجتماعية ، ويصبح المجتمع المحور الرئيسى ، لأى فلسفة تشرح تكوين العالم . ويستعين « رويس » « بنظرية العلامة » عند « شارلز بيرس » لشرح وتوضيح ذلك على إعتبار أن العلامة موضوع يحتاج للتأويل . وتعبير عن « عقل » ما وفكر ما ، فمن الناحية المنطقية ، يشكل التأويل علامة جديدة تحتاج بدورها للتأويل ، ويمثل وجود « العلامة » فى حقيقة أنها تتطلب تأويلاً ، وبالتالي يمكن القول بأن الكون كله يتكون من علامات وتفسيرات لها (١) . فإذا ما تم تطبيق النظرية على مشكلة الزمان مثلاً ، فإن أحداث الزمان ، تصبح عبارة عن « علامات » وطالما تحيا النفوس الفردية بتفسير الأحداث ، فإن أفعال التفسير يتم التعبير عنها فى النسق الزمنى « بعلامات » جديدة ، وبذلك يتكون تاريخ الكون من تتابع العلامات وتفسيراتها ، وطالما كانت أى فكرة بين فكرتين متناقضتين ، عبارة عن « علامة » تجد فى العالم تفسيرها الحقيقى ، فإن النظرية الميتافيزيقية ، يمكن تسميتها « بنظرية فى العلامات » . ويمكن القول « بأن وجود العالم يتكون من عملية تفسير العالم » ، أو أن عملية تفسير العالم تشكل وجوده . ولما كان العالم لا يفسر كله فى أى لحظة زمنية واحدة بل بسلسلة لا نهائية من أفعال التفسير ، فإن هذه السلسلة من الأعمال التفسيرية تشكل النسق الزمنى للعالم ، لأن ماهية « الفعل التفسيري » تكمن فى أنه جهد لتفسير حياة ماضية لحياة مستقبلية وفى تحقيقه للوحدة بالتوسط بين نقيضين ، بل وإذا تم النظر للنسق الزمنى فى كليته ، فإنه يشكل فى حد ذاته ، « علاقة مركبة » ، لا محدودة ، تكون موضوعاً لخبرة ذات نظرة شاملة لكل النسق الزمنى (٢) . والحقيقة أن من يعتمد على المدركات أو التصورات لا يكون لديه أى فكرة عن ماضى أو مستقبل ، ولذا تمد نظرية العالم تأويل ، الواقع بالفروض المسبقة التي يتم إستخدامها فى التعامل مع الماضى والمستقبل ، فالذكريات علامات « للماضى » ، « والآمال » علامات للمستقبل ، ويتصف الماضى والمستقبل بالواقعية ، إذا تحقق لهذه العلامات تأويل حقيقى (٢) .

Ibid ., p. 283.

Ibid ., p. 290.

Ibid ., p. 286.

(١)

(٢)

(٢)

أما بالنسبة لقيمة « النظرية » وعلاقتها بمذهب « الإرادة المطلقة » أو لتحقيق الإنتقال من النظر إلى العمل، يرى « رويس » أنه لا بد من توضيح نمط السلوك الإرادى والعملى تجاه الكون ، وعن القرار والخطة الحياتية لمن يشرع فى رؤية العالم فى ضوء النظرية ، ولا بد من التساؤل فى نفس الوقت عن نوع الخلاص ، الذى يتحقق لمن يؤمن بأن « العالم مجتمع » . فلئن كان البراجماتى فى نظر وليم جيمس شخصاً عملياً ، فإن المؤمن بالتأويل يقوم بجهد إيجابى ، لأن كل تناقض عبارة عن علامة تتطلب التأويل ، وطالما يؤمن بأن العالم يحوى مفسره أو مؤوله ، فإنه يساهم فى حركة العالم أو مسرحية العالم ، وأما بالنسبة لنمط السلوك الإرادى للمؤمن بالنظرية ، يوضح « رويس » بأن هناك ثلاثة أنماط للسلوك الإرادى ، الأول سلوك يهدف إلى الحياة ، ويجعل الفرد يعامل الآخرين بوصفهم موضعاً لإرادته ، والثانى سلوك يهدف إلى إنكار إرادة الحياة ، ويعتبر إنكار الذات وسيلة للحياة ، وأما النمط الثالث ، فإنه سلوك لا يهدف إلى إثبات أو إنكار إرادة الحياة ويقرب من سلوك الولاء الذى إعتبره « بولس » أنسب أنماط السلوك الإرادى المحقق للخلاص ، فلا يكو إثباتاً أو إنكاراً لإرادة الحياة ، وإنما سلوك إيجابى من الذات لقضيتها (١) . ويصرف النظر عن الجوانب الدينية لهذا النمط ، إلا أنه يفترض وجوداً واقعياً لعالم روحى ولجتمع عالمى إلهى . فالحقيقة أن عندما يفكر أى كائن عاقل ، فى معنى تعامله مع الحياة والعالم ، فإنه يكتشف مبدأ عملياً وفرضاً نظرياً مسبقاً ، بأنه لا يمكن من الناحية العملية أن ينج وحده ، ولا يمكن من الناحية النظرية أن يعرف حقيقة خبرته ، بدون الإعتماد على علاقته بالآخرين أو بمجتمع المعرفة ، وبأن هذا المجتمع واقعى وحقيقى ، وبأن لا معنى لحياته إلا إذا كان عضواً فى مجتمع ما ولا معنى لنجاحه ، إلا بنجاح المجتمع الذى ينتمى إليه أساساً من خلال علاقته بالكون كله . وبأن لا قيمة لأفعاله إلا إذا إتصفت بالخلود وعدم الإلغاء ، فيكون لكل فعل ، وجود مستمر حتى نهاية الزمان . إن هذا المبدأ يعد عملياً ونظرياً فى أن واحد ، ولا يعتمد على النجاح اللحظى لأى فكرة فردية ، وإذا لم يكن صادقاً فى ذاته ، لن يكون هناك حياة أو عالم واقعى يتحقق فيه النجاح (٢) .

Ibid ., p. 286.

(١)

Ibid ., p. 313.

(٢)

وأما بالنسبة للمشكلة الفلسفية الخاصة بوجود عقل الجار ، فإن رويس يرى أن المسلمة التي تجعل الفرد يعترف بوجود العالم ، هي التي يعتمد عليها في الاعتراف بوجود الجار ، وأنها السبب في ذلك السلوك الإجتماعي للإرادة ، والقائم على مبدأ « أنه لا قيمة لوجوده إلا بوجود الآخرين » . والحقيقة أن الفرد يسلم بوجود عقل الجار ، لأنه أولاً يثير لديه مجموعة من الأفكار ، عندما يتعامل معه أو يخاطبه ، وثانياً يعرف أنها ليست أفكاره الخاصة ، بسبب أختلافها عن أفكاره ، وثالثاً يفشل عندما يحاول تفسيرها ، باعتبارها جزءاً من أفكاره ، ولذا يقوم بوضع إفتراض ، بأن هذه الأفكار التي إستقبلها لها تفسيرها ومفسرها ، وأنه لا بد أن يكون « عقلاً » أو ذاتاً ، ولا يمكن أن يكون عقله ذاته مصدراً لهذه الأفكار التي إستقبلها ، لذلك يعتبر وجود « الجار » المفسر الواقعي والحقيقي لتلك الأفكار ، التي ظهرت لديه من الأفعال التي إستقبلها منه إن السبب للتسليم بوجود عقل الجار ، أن الأفكار التي تولدت لدى الفرد ، كانت نتيجة لحركات وأفعال الجار ، وليست من أفكاره الخاصة ، وبسبب تمسكه بفرض أساسى للوعى الإجتماعى ، وهو أن كل الأفكار المتباينة لها تفسيرها الحقيقى ومفسرها .

ج - مشكلات المسيحية

ويعد أن وضع « رويس » إمكانية تطبيق النظرية الميتافيزيقية للعالم على مشكلات الحياة إتجه رويس لتوضيح صلتها بمشكلات المسيحية ، ومناقشة الحلول التي يمكن أن تقدمها لتلك المشكلات ولكن طالما أن الفلسفة تأويل للدين ، فمن الممكن إهسال بعض ما جاء فى « الإنجيل » ، كذلك لن تشكل مسألة تاريخ الكنيسة المسيحية الأولى مشكلة ، ويكفى الإعتماد على الصورة التي يرسمها « بولس » للكنيسة فى رسائله ، وعلى مجموع الأقوال والأمثال التي نسبها الأوائل « للمؤسس » . وأما مسألة « حياة المسيح » ذاتها فيتم تركها لمن لديهم المستندات الكافية ، كذلك لا يمكن إعتبار « بولس » المؤسس الحقيقى للمسيحية وإنما المجتمع الذى نخل فيه « بولس » هو المؤسس الحقيقى لها (١) . ويرى رويس أنه لكى

Ibid ., p. 350.

(١)

يتم التحقق من صدق الأفكار أو المشكلات التي تشكل أساس المسيحية ، لا بد من المقارنة بين المسيحية الأصل و المسيحية التاريخية ، ولتحقيق تلك المقارنة ، لنفرض أنه كان هناك فيلسوف يوناني ، سمع عن رسائل بولس ، ودخل حياة المجتمع المسيحي . وبينما كان ينتظر الانتقال أو التحول الأخير ، وعودة « إنسان السماء » سقط في النوم ، وإستيقظ فى القرن العشرين ولفرض أنه لم يسمح له بمعرفة أحوال الدين المسيحي ومشاكله ، إلا بعد معرفة كاملة لعلوم العصر الحاضر ، وعندما يصبح الفيلسوف ملماً بنتائج العلوم والفنون الحديثة ، ومحتفظاً فى نفس الوقت بذاكرته الفلسفية اليونانية الرومانية وبمسيحية الكنائس البولسية ، يتم السماح له بمعرفة تاريخ المسيحية ، حتى العصر الحاضر . سيلاحظ الفيلسوف الزائر وجود إختلاف بين مسيحية « بولس » وما تعلمه بعد إستيقاظه ، وأن هناك تعارضاً واضحاً بين نتائج العلم والمسيحية التاريخية من جهة ، وروح المسيحية القديمة من جهة أخرى . فأمال القديسين لم تتحقق ، ولم تأت النهاية ، ولم يعد السيد ، وأمانى الكنيسة القديمة عن قرب الخلاص ، كانت وهماً وكلمات « بولس » ، ما هى إلا نبؤات أدبية تاريخية زائفة أو خاطئة . فإذا أراد هذا « الفيلسوف الزائر » أن يظل مسيحياً ، فلا بد أن يبدأ عمله القديم ، ويميز بين الرمز والحقيقة ، وبين الواقع والصور المجازية ، وبين الأمثال والتأويل ، ويعرف أن الكنيسة قد دافعت عن الإيمان بنهاية العالم إما بعدم السماح فى الخوض فى هذه المسائل ، أو باستخدام الصور المجازية (١) .

وأما بالنسبة لأقوال « بولس » عن شخص وعمل المسيح والصلب والموت والبعث وظهور « السيد » مرة أخرى ، وأنه لا حياة ولا نجاه بدون المسيحية ، فلا بد من تأويلها ، لأن عالم « بولس » الذى وضع فيه هذه الصورة للخلاص ، خاصة مسألة عودة السيد ، لم يعد قائماً ، وإذا كان لا بد من فهم كلماته عن « الملائكة » والشياطين والسر ، لا بد من إعتبارها مجرد رموز أو « علامات » ، وأنها فى حاجة إلى التأويل . والواقع أن المذهب الرئيسى عن شخص المسيح فى مسيحية بولس ، لا ينفصل عن الإعتقاد فى الروح الإلهية الحية والكائنة فى الكنيسة . وإذا كان مذهب « بولس » عن شخص المسيح أساسياً للإيمان

Ibid ., p. 355.

(١)

فى مسيحية « بولس » ، فإن هذا المذهب فى جوهره ، مذهب لطبيعة الكنيسة وحياتها (١) . وذلك لأن « بولس » كان قد فسر حياة المسيح الإلهى المرفوع بأنها حياة الكنيسة ذاتها ، فأكسب ظهوره على الأرض معنى الفداء من خلال قدرته على العمل ، كمؤسس للمجتمع المحبوب (٢) . لذلك يرى « رويس » بأنه إذا كان هناك معنى للإيمان القديم فلا بد من النظر إلى أفكار « بولس » على أنها مجرد أمثال أو رموز أو ظلال روحية ولا بد من التمييز بين مطالب الحس ومطالب الروح ، وبين الظلال والحقيقة . فإذا إستطاع الفيلسوف الزائر للقرن العشرين ، إعتبار أقوال « بولس » عبارة عن رموز لحقيقه أعمق وتمسك بمذهب « بولس » عن حضور الروح الإلهية المخلصة فى الكنيسة الحية ، فإنه يظل مسيحياً ، مهما أوّل مسألة شخص المسيح . لأن الشرط الوحيد الذي يجعل الفرد مرتبطاً بالروح العميقة للمسيحية فى كل عصورها ، هو أن يكون قادراً على القول بأن الروح الالهية المخلصة للانسان تحيا فى الكنيسة (٣) . ولن يكون قادراً على هذا القول ، إلا إذا نظر لأى رواية عن شخص المسيح على إنها رمز أو أسطورة أو خيال . وإذا ما عرف المسيح كما عرفه « بولس » باعتباره روحاً ، فإنه يتعامل مع حقيقة واقعية ، طالما أن الروح الإلهية تحيا وتسكن فى الكنيسة .

وليس المقصود بالكنيسة الكنائس الرسمية التى دفنت نفسها فى التراث أو إعتبار الكنيسة مجرد حادث عرضى فى المسيحية وتبنى الدعوة بأن شخص المسيح يمثل جوهر المسيحية . وإنما إذا كان الإيمان الصادق ، يتمثل فى أن الروح الالهية المقيمة فى الكنيسة الحية تخلص البشرية ، فإن الكنيسة المسيحية الحقّة ، هى التى تحقق بالفعل وحدة البشرية ، وتوحدهم بالروح الإلهية ، وطالما أن خلاص الإنسانية ، يتمثل فى الأخوة والولاء للمجتمع المحبوب ، فإن الكنيسة تعد مجموع كل الأفراد . وطالما كانت قوة الكنيسة الأولى ، مربطة بالاعتقاد الراسخ بأن العالم على وشك النهاية ، وأصبحت بهذا الإعتقاد واثقة بأن من خلال قدره الله ، سيشهد أفرادها المخلصين ، الذين يعيشون حياتهم فى الروح ، خلاص كل البشرية ، فإن الكنيسة الحقّة على الأرض ، يمثلها أى جماعة من الناس

Ibid ., p. 385.

(١)

Ibid ., p. 360.

(٢)

Ibid ., p. 367.

(٣)

تكون مخلصه طبقاً لمعتقداتها ، لقضية وحدة كل أفراد الجنس البشرى (١) . إن أى جماعة أو تنظيم رسمى ، لا يمكن إعتباره مكوناً للكنيسة الحققة ، إلا إذا كان أفرادها مؤمنين « بالمجتمع المحبوب » ، و بوحدة البشرية ، وبالسعى لإيجاد هذا المجتمع وتلك الوحدة . وإذا كانت الحضارة الحديثة ، التى تعد نتاجاً للروح التى أظهرت نفسها فى الكنيسة البولسية ، قد فشلت فى تكوين المجتمع المحبوب أو مملكة السماء على الأرض ، فذلك بسبب بعدها عن الروح الحققة لتلك الكنيسة ، إن المسيحية الحققة تتمثل فى أى جماعة مؤمنة ، تنشر المحبة البولسية ، وتتحدى بأخوة كل أفراد البشرية ، وتعتبر الكنيسة العالمية ، الكنيسة الحققة والوحيدة .

ويؤكد « رويس » أن النظرية الميتافيزيقية العالم تأويل قادرة على تقديم تفسير لعبارة بولس القائلة « بأن الروح الإلهية التى تسكن الكنيسة ، تحقق نجاه وخلص البشرية » . فإذا كان العالم نتاجاً لعملية الفكر ، فإن التعاقب الزمنى لأحداثه ، يكن محكوماً ، بدوافع لا محدودة ، تفسر الماضى للمستقبل ، وتعبير عن نفسها فى تطور ، تحقق فيه الحل لكل مشكلة ، والحسم لكل تناقض ، والتفكير لكل مأساة . وبذلك يحوى العالم نظاماً زمنياً ، وغاية يسعى إليها ، وتطوراً حقيقياً ، ويكون له مثل أعلى ، يحاول الوصول إليه بتتابع أحداثه ، ولكنه يفشل فى تحقيقه فى أى لحظة من لحظات الزمن . وينتج عن ذلك أن السعى نحو الهدف والتفسير الجديد الذى يتطلبه كل حدث جديد من أحداثه ، والتعاقب اللانهائى لأفعال التأويل ويشكل بناء العالم . وأن الفصل المأساوى بين العالم وغايته ، والقيود الملزم لكل مخلوقاته بالسعى نحو غاية لا يصل إليها فى أى لحظة زمنية ، يصبح مشكلة العالم . . . وبذلك يكون هذا العالم عالم « بولس » ، لا يستطيع تحقيق غايته على الأرض ، ومازال يئن من الألم ، ويحتاج إلى « مخلص » يأمل فى وجوده . فلقد أمنت الكنيسة المسيحية ، بأن العالم ، من خلال عظمة الروح ، قد وجد أخيراً محرره ، وأنها قد تجلت وتسكن الآن مجتمع المؤمنين .

Ibid ., p. 370.

(١)

وأما بالنسبة لحديث « بولس » عن خلاص العالم ، فبالرغم من أنه يقترب من الصور الرمزية الأخلاقية ، إلا أنه قد إعتد على حقيقتين ، عبر عنهما فى هذه الصور الرمزية ، ويمكن التعبير عنهما وتفسيرها فى ضوء النظرية الميتافيزيقية للمجتمع . والحقيقة الأولى أن خلاص العالم يحدث من خلال الصراع مع الشر وبذلك تصبح أفعال المحبة والتكفير ، أفعالا للتوفيق والتصالح ، التى تفسر الماضى للحاضر ، لتجعل العالم يظهر كنسق روحى . والحقيقة الثانية أن هذه الأفعال لا يمكن أن توجد إلا فى مجتمع (١) . والحقيقة إذا كان خلاص العالم ككل ، والوعى بأنه فى مجموعته عبارة عن تحقق لحظة إلهية ، وبأن أحداثه قد توافقت ، وتم تفسيرها كلها ، أمر لا يكتمل فى أى لحظة من لحظات الزمان ، فإن فى عالم التأويل أيضا ، لا تتحقق وحدة الروح والشعور بالتوافق والإنتصار على موت العالم ، فى أى لحظة زمنية ، وإنما يتحقق من خلال نظرة شاملة لمعنى وغاية كل ما يحدث فى الزمان (٢) . ويرى « رويس » أن نظرية العالم مجتمع ، وأن الحياة الإجتماعية للكون التى تكشف عن الإلهى تعبر فى صيغة ميتافيزيقا المجتمع ، عن ما يكون قد تشكل لدى أى فرد من خلال حدس إيمانى دينى .

وبعد هذا العرض للتأويل وأهميته ومكوناته ، وإهتمام « رويس » بتطبيق نظريته « العالم تأويل » ، على مشكلات المسيحية بعد ثبات نجاحها فى تفسير مشكلات الحياة والفلسفة ، فمن الواضح أن رويس يؤمن تماما بأن التأويل أداة معرفية صالحة لفهم كل أمور الحياة والعقيدة . والواقع أن تفسير المعرفة بأنها عملية تأويل (٣) . مسألة لا تجعل العقل مجرد مخزن للإدراكات والتصورات ، ولا تصبح وظيفة العقل ، مجرد تكوين تصورات جاءت من مدركات أو بحث عن « مدركات » لما لدية من تصورات . كذلك لا تكون نظرية المعرفة مجرد بحث عن أصل المعرفة وكيف تكونت كما فعل التجريبيون ، أو بحث عن نتائجها كما رأى البراجماتيون . إن المعرفة هى عملية توظيف الماضى من أجل المستقبل وترجمة وتفسير لأفكار الماضى من أجل توجيه الفعل فى المستقبل . فالمعرفة مجتمع حى ، أو مجتمع تفسير ، أما بين الذات ونفسها أو بينها وبين الآخرين . وتصبح الفكرة خطة

Ibid ., p. 377.

(١)

Ibid ., p. 379.

(٢)

Ibid ., pp. 150-156.

(٣)

للعمل . وبناء على هذا التصور لنظرية المعرفة ، لن تكون هناك معارف ثابتة أو أبدية أو هناك نصوص وتفسيرات ثابتة ، فكل ما ينتمى للتراث لا بد وأن يوظف لخدمة المستقبل ، ولا تصبح هناك قيمة لفكر قديم ، إلا إذا تحوّل إلى فعل يمكن القيام به فى المستقبل ، فالمعرفة حياة وروح نشطة . ولكن يلاحظ أن « رويس » عند توضيح قيمه « الفكرة الوسيطة » فى عملية التّأويل أكد اتفاقه مع « شارلز بيرس » فى إعتبار الفكرة الوسيطة ، أداة لتوضيح الأفكار ، ولا تعنى مجرد تحويل التصورات إلى أفكار أو العكس كما قال « وليم جيمس » (١) وإنما تعد إكتشافاً جديداً . والحقيقة أن وصف الفكرة بأنها « أداة » لتوضيح الأفكار ، لا يعنى نقل الفكرة من مجال الفكر إلى الواقع أو تحويلها إلى فعل يترتب عليها ، فقد يكون للفكرة دورها فى تنمية الفكر ، وإكتشاف الوحدة الفكرية ، إلا إنها تظل حبيسة الفكر ولا مجال لنقلها إلى الواقع . وإذا كانت الفكرة كما يقول « رويس » مرشده للعقول الرائدة فى العالم (٢) . فإنها ليست مرشدة للأفعال التى يتم بها تغير العالم ، فقد يتم الفهم ويتم التفسير أو التّأويل ، ولكن لا يتم ولا يحدث تغير ، حتى وإن كان « رويس » لا يفصل بين الفكر والسلوك .

وبالرغم من أن التّأويل وسيلة لتوضيح ، وإكتشاف العلاقات الكامنة وراء الأفكار المتناقضة والمختلفة ، وتؤدى الفكرة الثالثة إلى توضيح الأفكار الأخرى ، وتعد إكتشافاً جديداً يثرى الحياة العقلية ، إلا أن التّأويل يُبقي ولا يحذف ، فيؤكد ويوضح ولكنه لا يلغى ولا يتخلص من الزوائد من الأفكار ، فالتّأويل مقارنة بين فكرتين ، ويسعى للوصول إلى معرفة فكرة ثالثة ، أو وسيطة يشرح فى ضوءها الفكرتين ، فإذا تمت معرفة هذه الفكرة ، تكتمل المقارنة ، وأما إذا ظلت غامضة ، فإن الفرد قد يحتاج إلى فرد آخر يوضحها له ، وإذا لم يتوفر هذا الفرد تظل المقارنة غير مكتملة (٣) . فيسعى التّأويل فى جميع الحالات للتوفيق أو الإبقاء على جميع الأفكار كما هى . ولكن كم من الأفكار الإنسانية ، تكون صحيحة وصادقة فى ذاتها وتتم المقارنة بينها ؟ فلا يعد التّأويل وسيلة لتنقية الأفكار ، أو تطهير العقل من الأخطاء أو المعتقدات الخاطئة ، أو الأفكار التى لا معنى لها ، أو التى ليس لها وجود واقعى

J.Royce : The Problem of Christianity p.II p. 182.

(١)

Ibid ., p. 188.

(٢)

Ibid . pp. 160-170.

(٣)

لها ، فإذا كانت المعرفة المؤسسة على « الإدراك » ، تحذف ما لا يأتى من الحسى ، « والتصور » لا يبقى إلا على ما له أسسه العقلية والمنطقية ، فإن التؤول ليس لديه معيار على صدق الأفكار إلا معيار « تحقيق الوحدة » . فإذا كان التؤول يتم داخل الحياة العقلية للفرد ويعتمد على الإتفاق وقبول التؤول، إذا كان موجهاً للآخرين ، أى المعيار هنا موافقة الآخرين . فلا يقدم « التؤول » فى جميع الحالات أى وسيلة ذاتية ، تبين أو توضح صحيح الأفكار من زائفها ، وكم من الأفكار ، قد آمن بها الفرد ، وقبلها الآخرون ، وظهر بطلانها ؟ وكما من مشكلات الفلسفة قد ظهرت بسبب محاولة المقارنة بين فكرتين أو التؤول بينهما . فجاء منهج « التحليل » ، وحذف كليهما أو بين عدم تمايزهما أو إختلافهما . والحقيقة إذا كان « التؤول » يبنى ويوفق المتناقضات ، فإن « التحليل » يغوص فى أعمالها وجنورها ، وكما من أفكار فقدت جنورها بالتحليل ، فإن كان للتؤول أن ينجح فلا بد أن يسبقه التحليل

كذلك إذا كانت إذا كانت غاية « التؤول » إكتشاف الوحدة الكامنة بين المتناقضات ، فإنه لا يكتشف « المتناقضات ذاتها » . فالفكرة الثالثة وسيط يفسر فكرتين متعارضتين ، ولكنه لا يفسر التناقض ذاته ، فالتؤول يجمع ولا يفرق ، يربط ولا يفصل ، ينظر للمعرفة نظرة كمية ، فتزداد المعارف الإنسانية بمعرفة الوسائط ، ويكسب الفرد النظرة الشاملة التى تختفى فيها المتناقضات . والحقيقة أنه إذا كان إكتشاف « الثالث » نوعاً من الإبداع ، فإن إكتشاف « التناقض » والتميز « بين الأفكار يعد فى حد ذاته إبداعاً . لذلك لابد من وجود خطوة سابقة على التؤول ، تتمثل فى إكتشاف التناقضات والتميز بين الأفكار ، وبذلك تكون هناك حاجة ، لتطبيق المنهج « الديكارتى » ، وإعتبار أن الوضوح والتميز شرط ضرورى للفكر ، قبل تطبيق المنهج التؤولى ، كذلك لابد من تطبيق المنهج التحليلى للتميز بين الأفكار والتخلص من الزائد منها ، قبل التؤول وإجراء المقارنات ، وإلا يصبح التؤول مجرد منهج تبريرى ، لا ينظر لقيمة الفكرة أو صلابتها أو صلاحيتها ، وإنما يتقبلها كما هي ، ويبحث عن ثالث يساعد على توضيحها أو تفسيرها ، كذلك إذا أمكن وصول الفرد إلى الفكرة الثالثة سواء بجهد الشخصى أو بمساعدة الآخرين ومعيار صدق هذه الفكرة الثالثة

يتمثل في توضيحها للفكرتين موضوعا المقارنة ، وتحقيق الرؤية الفكرية الواضحة أو قبول الآخرين لها ، فإنه لا يصبح هناك معيار موضوعى واقعى ، لقياس صحة التأييل ، إلا مجرد تحقيق الفهم المتبادل إما بين الأفكار الباطنية للفرد أو بينه وبين الآخرين فيغيب الواقعى فى مقابل الروحى ، وتصبح غاية المعرفة تحقيق الوحدة الذاتية والوحدة الإجتماعية . وكأن مجرد تحقيق الفهم المتبادل والإتفاق بين الأفراد ، كفيل بتحقيق المعرفة الكاملة بالواقع ، وإذا ما قبل الافتراض بأن التأييل يؤدي إلى فهم للواقع ، فهل يؤدي إلى تغييره ؟ والحقيقة أن ثراء المعرفة أصبح يتوقف على تعدد المناهج ، ولا يتحقق هذا الثراء بتطبيق منهج واحد فى الفلسفة والعلم والفن والحياة والدين . وإذا كانت المقارنة محور التأييل فإلى أى حد يمكن أن تجعل الإنسان يتوصل إلى معرفة أن الماء مثلاً يتكون من أكسجين وهيدروجين ؟ وما هى الفكرة الوسيطة التى يتم بها تفسير الماء العذب من المالح مثلاً ؟ فلقد قرر « رويس » أن التأييل يصلح لجميع الموضوعات ، حتى الموضوعات المادية ، والحقيقة أنه إذا كان إكتشاف الثالث يصلح لبعض موضوعات الفكر ، فإن التأييل لا يصلح لكل موضوعات المعرفة ويعد خطوة للوراء ، بعد أن « أصبح » « موضوع » المعرفة ، يختار ويفرض المنهج الذى يناسبه .

إذا كان « هيجل » فى فلسفته الدينية يطالب بالقضاء على الفصل بين الدين والفلسفة ، برؤيه الوحى فى الواقع والوصول إلى المثل الدينية بالعقل (١) فإن « رويس » يقترب من فلسفة هيجل الدينية فى دعوته لقيام مجتمع التأييل . أن دعوة رويس لقيام مجتمعات التأييل يؤدي إلى الدعوه إلى القضاء على الفصل بين الدين والفلسفة ويطالب برؤيه الوحى فى الواقع والوصول إلى المثل الدينية الأمر الذى يشبه ، الموقف الهيجلى فى فلسفة الدين . فهناك حقيقة واحدة ، وهى التى يتم إكتسابها بالتأييل ، فلا يعد الإدراك أو التصور ، أو الواقع أو الوحى ، مصدراً لمعارف الإنسان ، وليس هناك عقائد ثابتة جامدة ، يتمتع الإقتراب منها بدعوى أنها أمور روحية تتعلق بالوحى . وليس هناك مثل عقلية ، تستحيل أمام الفكر بدعوى عجز العقل عن أدراكها ، وليس هناك إنحياز تجاه العقل على

(١) د. حسن حنفى - قضايا معاصره فى الفكر الغربى "محاضرات فى فلسفة الدين عند هيجل من ١٧١

حساب العقيدة كما يرى « فلاسفة التنوير » ، أو رفض قاطع للنص الدينى ، كما كان موقف « إسبينوزا » ولا تعد الوحدة أساس للوجود كما يرى « اسبينوزا » (١) . أو الإتجاه إلى الكثرة والتعدد كما يرى « وليم جيمس » وإنما هناك حقيقة واحدة ، لا تكون دينية أو فلسفية ، وعالم يجمع بين الوحدة والكثرة ، يتحقق بمجتمع التأويل .

إذا تم تصور «العالم مجتمعاً» للتأويل والله « مفسره » ، وتحقق تأويل الفرد لله ، والله للفرد ، من منطق تأويل الكل للكل (٢) ، فلن تصبح العلاقة بين الله والإنسان علاقة « عبد بسيد » أو علاقة رأسية ، أعلى بأدنى ، أو حاكم بمحكوم أو رئيس بعبده ، وما تحمله تلك العلاقة من الكل لله ولا شئ للإنسان ، أو القوة الجبارة فى جانب والضعف والقهر فى الجانب الآخر . أو علم شامل وعلم منقوص . أو تميز كامل للطبيعة الالهية على حساب الطبيعة الإنسانية ، إن تصور الله « مؤول » يحقق نوعاً من العلاقات المتساوية أو يمثل صورة « للندية » ، فتبادل الأنوار يكسب الله بعض صفات الطبيعة الإنسانية ، ويكسب الإنسان بعض صفات الطبيعة الإلهية كالنظرة الشاملة ويجعل كل من الله والإنسان مشتركين فى طبيعة فكرية واحدة ، وتقل الفروق بين الإنسانى والإلهى . وإذا كانت إرادة التأويل تنبع من المحبة فالله محب للفرد وجاره ، والإنسان محب للجسار والله ، فتصبح « المحبة » واقعاً حقيقياً للوحدة بين الإنسان والله فى عالم التأويل .

والحقيقة أن إعتبار الله مؤولاً للعالم وللأفراد ، مسألة تؤدي إلى الحيرة فى فهم صفات الله عند « رويس » ، أو الموقف من حيث السلبية والإيجابية بالنسبة لله ، أو التذبذب فى إعطاء الله دور إيجابى أم دور سلبى ، ففى عرض « رويس » للمطلق فى نظرية المعرفة ، وصفة بأنه « الفكر الشامل » وجوده ضرورى لوجود الخطأ ، وفى الأخلاق وصفه بأنه القاضى الأعلى ، ولكنه لا يوقع الجزاء بقدر ما يوفر وجوده السلوى والعزاء ، وفى شرح « رويس » لمجتمع التأويل أعتبر الله « مفسراً » أو مؤولاً ، وإذا كان الله مؤولاً للعالم وللأفراد فإنه يقوم بدور إيجابى ، ولا يكون معزولاً عن الأفراد ، تبعاً لطبيعة مجتمع التأويل ، أو يكون

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٧٩

J.Royce : The Problem of Christianity ,p.II. pp 210-220.

(٢)

كياناً قائماً بذاته مستقلاً عنهم ، وإنما يحيا بهم ومن خلالهم ويحقق الوحدة الفكرية بينهم ، مجتمع التأويل ، ولذلك من الواضح أن « رويس » يعطى لله دوراً إيجابياً ، بعد أن كان دوره فى الفلسفة أو فى الميتافيزيقياً سلبياً . وأن كان من الممكن الإعتراض على ذلك بأن « رويس » قد وصف المطلق بأنه « الإرادة الكلية » ، فالواقع أن الإرادة الكلية هنا ، تعنى إرادة المجموع أى مجموع الإرادات ، وليست إرادة كلية بمعنى « المنفذ » القادر على كل شئ وإنما إرادة تعنى مجموع إرادات الافراد ، أو التى تصب أو تحوى إرادات الأفراد ، حقيقة أن الإرادات الفردية لا تكوونها أو تشكلها وإنما تعبر عنها ، ولكن لا وجود مستقلاً لها بذاتها .

والحقيقة أن عرض « رويس » للنظرية العالم « مجتمع تأويل » بالتوضيح من خلال ضرب الأمثلة والتطبيقات العملية للنظرية ، تبين أنه لا معنى للنظرية أو لفكر ميتافيزيقى ، إلا إذا تحول إلى سلوك ، فالسلوك يعد المحك الأساسى ، لأى فكر سواء كان دينياً أو مثالياً أو ميتافيزيقياً . لذلك تم تحليل الثلاث أفكار الرئيسية للعقيدة المسيحية أو ترجمتها إلى سلوك فى الحياة ، أو إلى المذهب المسيحى فى الحياة (١) . كذلك تم توضيح النظرية الميتافيزيقية « العالم مجتمع » ، بأمثلة وأنماط من السلوك توضح قيمتها فى الحياة ، لأن من لا يترجم ما يؤمن به من أفكار إلى سلوك ، يصبح فكره عقيماً مجرداً ، ويقع فى الإزدواج بين الفكر والعمل (٢) . لذلك يعد السلوك الإرادى المحل النهائى لأى فكر دينى أو ميتافيزيقى فلسفى ، فإذا أمكن تحقيق التوافق بين الدين والفلسفة ، أو بين العقيدة والفكر المثالى ، فإن « الإرادة » تصبح المعبر الوحيد بينهما ، الممثل لوحدتهما ، فإذا كانت النظرية الميتافيزيقية تنتمى إلى عالم ، يختلف عن عالم الفكر الدينى ، فالأول يقوم على المنطق والثانى يقوم على الإيمان ، فإنهما عالمان مختلفان ، أو فكران متباينان ،وتصبح الإرادة هى الفكرة الثالثة أو الوسيطة بينهما، فتحقق وحدة الرؤية فتظهر كتعبير عنهما ، وإذا كانت الإرادة تعبر عن نفسها فى الحياة فإن الحياة تصبح الترجمة العملية لكلا التيارين من الفكر أو العالمين ، ويصبح « رويس » من أنصار الإرادية المطلقة . والحقيقة أن

J.Royce : The Problem of Christianity p. II. Lecture VII.

(١)

Ibid ., pp. 275-283.

(٢)

« التأويل » كان واضحاً في معالجة « رويس » لموضوع « السلوك الإرادى » المترتب على النظرية الميتافيزيقية ، فجاء السلوك الثالث للإرادة وسطاً بين نهجين متعارضين لها . الأول يؤكد إرادة الحياة والثانى يؤكد على رفضها ، إذ جاد وسطاً بين تضحية الفرد بالجماعة وبين إنكار الفردية أو الذات والتأكيد على الغيرية ، فالفرد يحيا فى « المجتمع » ويشارك فيه لأنه يحقق له الخلاص ، ومنهج الإرادة الإمثال ، يتمثل فى السلوك المخلص تجاه التأويل ، سلوك فرد يؤمن بأن لا قيمة له ، إلا فى مجتمع تأويل يشارك فيه ، ويتحقق من خلاله خلاصة ، وبه يكسب قيمته فلا يكون سلوك الإرادة ، سلوك من لا يؤمن بإرادة الحياة أو من ينكرها ، وإنما سلوك من يرى حياته فى المجتمع ، ويحافظ فى نفس الوقت على ذاته وتفردده ، بإعتباره مشاركاً فى التأويل .

ويظهر ربط قيمة الفكرة بغايتها ، فلا قيمة لمجتمع التأويل إلا إذا حقق الغاية من وجوده (١) . ولا قيمة للنظرية الميتافيزيقية ، إلا إذا ترجمت إلى سلوك ، ويوضح ذلك الربط التأثير بالفكر البراجماتى فى الحكم على الفكرة حسب نتائجها العملية ودلالاتها فى الواقع ، وبذلك قد يظهر نوع من التناقض فى موقف « رويس » من البراجماتية ، إذ من الواضح رفض وجهة نظرها فى بعض المواقف ، خاصة مواقف « وليم جيمس » فى ربط الفكرة بالنجاح أو العمل ، أو فى تفسيره للإعتراف بوجود « عقل الجار » بالإستدلال التمثيلى (٢) . وربما يمكن تفسير هذا التناقض فى موقفه من البراجماتية ، خاصة « وليم جيمس » بسببين ، الأول نظره رويس التأليفية للفلسفة ، وإعتماده على التأويل ، ويجعل الفلسفة أقرب إلى التأليف بين الأفكار المتناقضة ، ويسمح بإنتقاء الأفكار بغض النظر عن الإطار التى تنتمى إليه ، أما السبب الثانى ، ربما بسبب إعتبار آراء « وليم جيمس » ، أقرب إلى الفكر المثالى ، بالرغم من عدائه للمذهب المثالى ، إذ يرى « رويس » أن كل فلسفة تأويل ، والمثالية تكمن فى جذور كل فلسفة .

Ibid ., pp. 203-215.

(١)

Ibid ., p. 313-317.

(٢)

والحقيقة أن النظرية الميتافيزيقية « العالم مجتمع تأويل بالرغم من تطبيقاتها العملية ، تحول العالم إلى مجموعة رموز وعلامات ، وبذلك تصبح نظرية تبريرية تختفى فيها المتناقضات ويصبح كل ما فى العالم ذا معنى ، إذا وجد « المجتمع المفسر له » ، وتحقق مثل هذه النظرية الوجود الواقعي للكائنات ، سواء كانت كائنات مادية أو روحية ، طالما وجد « المفسر » المناسب أو المجتمع المناسب للتفسير ، فكل ما يقرر الفكر وجوده ، يوصف بالواقعية ، وبذلك تعد النظرية عودة للفكر الأفلاطونى ، بل لقد جاء منهج « رويس » فى صياغة هذه النظرية أقرب لمنهج « أفلاطون » فى صياغة نظرية المثل ، فكما تأثر أفلاطون من خلال نقده للفلسفات السابقة ، فجاءت نظرية المثل ، تأليفاً مركباً من فكر فيثاغورث وفكر « بارميندس » « وهيراقليطس » و « سقراط » (١) فإن النظرية الميتافيزيقية لعالم التأويل قد جاءت تأليفاً من فكر « شارلز بيرس » ، « وليم جيمس » و « برجسون » و « هيجل » و « شوبنهاور » وطالما أن عمل الفلسفة التأويل ، فلقد ساهم كل فيلسوف بدوره وأمكن من خلال المقارنات تأليف هذه النظرية ، وكما قدمت « نظرية المثل » عند أفلاطون حلاً وتبريراً لمشكلات الفكر ، وانتشرت فى مجالات الفكر كله ، فإن نظرية « العالم تأويل » تقدم نظرة جديدة ، أو حلولاً لمشكلات المعرفة والوجود ، وشرحاً وتبريراً للفكر الدينى المسيحى . وإذا كان المثال عند « أفلاطون » محور الفكر والوجود ، فإن « المجتمع » فى النظرية الميتافيزيقية عند رويس ، يشكل أساساً للمعرفة ، وضروره لقيام العالم الواقعى . وإذا كان عالم الحسى عند أفلاطون عالم الظاهر والظن ، وبالفكر والتأمل يصل الإنسان إلى « المثال » ، والعالم الحق الذى تختفى فيه التناقضات ، فالعالم والكون وكل ما فيه من « علامات » و« تناقضات » يصل الإنسان إلى فهمها بالتأويل ، أو يكتشف الوجود الحق ، أو الثالث الذى يقدم حلاً للمتناقضات . بل لقد جاءت فكرة « الوسط » عند رويس أقرب لفكرة « العدالة » عن أفلاطون (٢) . ولئن كان « للفيلسوف » دور متميز عند أفلاطون فى القدرة على معرفة عالم المثل (٣) ، فإن الفلاسفة عند « رويس » لا يشكلون مجتمعات للتأويل ، لأن الفلسفة ذاتها تأويل .

(١) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ترجمه د. زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٧ من ١٧٧

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠

Plato : The Republic , p.260

(٣)

كما تظهر ملامح الفكر الأفلاطوني فى الصورة الخيالية للفيلسوف اليوناني اللاتيني المتحول إلى المسيحية ونام واستيقظ فى العصر الحاضر أو فى القرن العاشرين ، والتساؤل عن ماذا يفعل ليظل مسيحياً ، بعد أن تذكر معتقدات « بولس » وقارنها بعلم العصر الحاضر . فالصورة الخيالية تشابه أسطورة الكهف عند أفلاطون (١) . والمعتقدات « البولسية » عالم المثل ، وظروف العصر الحاضر عالم الصور ومن أراد فهما لجوهر المسيحية ، وحلاً لمشكلاتها ، فما عليه إلا الإيمان بوجود عالم روحى ، ويتأمل المعتقدات ويقوم بتأويلها ، فيحقق « الجدل الصاعد » ويعود ممسكاً بإعتقاد واحد راسخ بإن الروح الالهى المخلصة للبشرية تسكن الكنيسة أو المجتمع ، فيحقق « الجدل الهابط » ، وكأن مسيحي العصر الحاضر أو القرن العشرين كان يحيا فى عالم المثل (عالم المجتمع المسيحي الأول) وما عليه إلا أن يتخلص من مسيحية العصر الحاضر والمسيحية التاريخية ، ويعود إلى مسيحية الأصل أو جوهر مسيحية الكنائس « البولسية » ، فيعودوا لفكره حلول الروح الالهى فى الكنيسة ويفسر فى ضوءها كل تجمع انساني تجمعه وحدة الهدف ، ويعيد بناء المجتمع المسيحي ، أو أى مجتمع كان فى ضوء هذه الفكرة . فعالم الحاضر عالم الكهف بظلاله ، وعالم مجتمع الكنيسة البولسية عالم المثل .

وتعد الفكرة الميتافيزيقية للمجتمع ، حدسا فلسفياً تمتد جذوره فى فلسفة « رويس » ، أو تعتبر من الأفكار المركزية فى فلسفته ، فبدون مجتمعات التأويل ، لا تاريخ لعالم واقعى على الإطلاق ولا وجود للأخر أو لأفراد ، بل والذات الإنسانية نفسها ، ما هى إلا مجتمع تأويل . وإذا تم الانتقال إلى الدين المسيحي ، تصبح فكرة المجتمع المثالى أو العالمى الفكرة المحورية فى العقيدة ، وتشكل أساساً لكل أفكار المسيحية الرئيسية . وكل خلاص يرغب الفرد فيه ، وكل معرفة يسعى لإكتسابها ، وكل وجود لكائنات روحية يؤمن بها الفرد ، لا يتحقق إلا من خلال المجتمع . وإذا كانت الفلسفة الدينية عبارة عن نظرية فى المعرفة والسعادة ، فإن المجتمع يعد محورا لهذه النظرية ، فلا معرفة أو سعادة يمكن للفرد إكتسابها ، إلا من مجتمع ينتمى إليه ، وإذا كان هناك حقيقة واقعية واحدة أساسية ،

Ibid ., p. 278.

(١)

وتفسر كل شئ في مجال الوجود والمعرفة والأخلاق ، فلن تتمثل تلك الحقيقة إلا في المجتمع والعلاقات الإجتماعية . وإذا كانت فكرة « المجتمع » تشكل حدساً رئيسياً ، فإن معالجة مسألة الوحدة والكثرة ، تعد إمتداداً لذلك الحدس الفلسفى عند « رويس » ، ويقترب « رويس » من « لينتز » في محاولة التوفيق بين الوحدة والكثرة ومن « برادلى » في ربط أجزاء الكون بعضها البعض . فإذا كان فريق يجعل الوجود الحقيقى واحداً والتعدد وهما . وفريق يرى الكون في كثرته البادية وإن الرباط والوحدة وهم ، فإن « رويس » يقدم حلاً لتلك المسألة من خلال النظرية الميتافيزيقية العالم « مجتمع تأويل » .

ويظهر الإتجاه الدينى المسيحى واضحاً فى منهج عرض « رويس » للنظرية الميتافيزيقية وتطبيقاتها فى الإتجاه إلى الإنتقال من العقل إلى العقيدة . فكل نتيجة يتم التوصل إليها وببراهين عقلية بحثه ، تجد ما يماثلها ، أو نموذجاً تطبيقياً لها فى مجال الدين ، أو فى سلوك قام به أحد الأنبياء . أو القديسين ، فالسلوك المخلص للإرادة تجاه المجتمع ، والمتمثل فى سلوك الولاء ، يظهر فى تفسير « بولس » للمحبة ^(١) . وفساد الرأى القائم بأن الآخرين إمتداد لذات الفرد واستدلاله لوجودهم ، من « التمثيل » ، يتفق مع رأى « بولس » بأن الإرادة الجمعية تعارض الإرادة الذاتية . والنموذج الأمثل لسلوك الإرادة ، النابع من الأخلاص للمجتمع ، يظهر فى سلوك القديس « بولس » فى دعوته ، وتضحيته من أجل قضية يؤمن بها ^(٢) . كذلك يظهر فى عرض « رويس » للنظرية الميتافيزيقية ، فى إطارها الفلسفى النظرى ، خلط متعمد إلى حد ما ، بين « المصطلحات » الفلسفية أو تلك التى يجرى إستخدامها فى العبارات الفلسفية ، وبين « المصطلحات » أو الكلمات الى يتميز بها النسق الدينى المسيحى ، وذلك على أفتراض أن لكل دين لغته . فتستخدم وتكثر الإشاره إلى كلمة « الجار » بدلاً من كلمة « الآخر » و « الخلاص » بدلاً من الإستقرار « أو السعادة » « وروح المجتمع » بدلاً من المؤول ، « والضياح » بدلاً من الانحراف والعزلة . وبذلك يظهر نوع من الإيحاء الخفى ، بأن الفلسفة ماهى إلا تعبيراً عن فكر دينى مسيحى ، أو أن العقل والوحى أو الفلسفة والدين المسيحى ماهما إلا طرفين لخيوط واحد .

J.Royce : The Problem of Christianity p. II pp.320-324

(١)

Ibid ., pp. 310-113.

(٢)

إذا كان التّأويل عمل الفيلسوف ، والفلسفة تأويل ، والتأويل مقارنة ، فإن عمل الفلسفة ، يقتصر على إجراء المقارنات بين الأفكار المتناقضة ، والتأليف بينهما باكتشاف الأفكار الوسيطة ، التى توضح تلك الأفكار ، لبعضها البعض ، أو تفسر كلا منهما فى ضوء الأخرى ، وتصبح الفلسفة بحثاً عن الأفكار الوسيطة ، التى قد تحسم النزاع أو تفض الخلافات ، وإذا كان السلوك الأمثل للإرادة ، يكمن فى الولاء « للمجتمع فإن الفيلسوف ، يتمثل بورة فى حل المتناقضات الإجتماعية . والواقع إذا كان « التأويل » مقارنة ، أو تأليفاً وبحثاً عن الفكرة الثالثة ، إلا أنه لا يعد موجهاً ومهتماً بتلك الأفكار التى تجرى المقارنة بينهما ، لأن إذا كان « الثالث » يوضح فكرة فى ضوء فكرة أخرى ، فإنه لا يوضح قيمة الفكرة ذاتها ومدى صلاحيتها أو صلاحيتها . لذلك هناك حاجة للتّحليل قبل التّأويل . وإذا كان « رويس » قد قال بالانتباه والانتقاء للفكرة ، إلا أن الانتباه لا يعد تحليلاً ، والواقع أن قصر مهمة الفلسفة على التّحليل فقط كما يقول « برتراندرسل » (١) . أو التّأويل فقط مثلما يقرر « رويس » ، أمر يجعل المنهج الفلسفى ، منهجاً قاصراً ، فإذا كانت الوضعيه « المنطقية » ، تجعل الفلسفة تحليلاً ، « ورويس » يجعل الفلسفة تأويلاً ، فإن أنسب المواقف يتمثل فى موقف « ديكرت » ، فى كتابة قواعد المنهج ، حيث جاء التّحليل خطوة سابقة للتركيب أو التأليف . وإذا أمكن إعتبار التّأويل نوعاً من أنواع التّحليل ، من حيث توضيح الأفكار ، إذ يوضح التّأويل فكرة فى ضوء الأخرى ، باكتشاف الثالث ، وإذا لم يتم إكتشاف هذا الوسيط تظل الأفكار غامضة ، أى فهم التّأويل بمعنى التوضيح ، الذى قد يعد أحد أهداف المنهج التحليلى ، إلا أن عدم وصول « التّأويل » إلى هدفه ، لا يؤدى الى الغاء أى فكرة من الفكرتين المتعارضتين ، بينما يؤدى « التّحليل » إلى التخلص من الأفكار التى لا تصمد أمامه ، فالتّحليل يقلل من الأفكار (٢) . والتّأويل يزيد منها باكتشاف الثالث ، التّحليل يبحث عن الجنور ، والتّأويل يؤلف بين الفروع ، وإذا كان التّحليل إتجاهاً لأسفل ، فالتّأويل إتجاهاً لأعلى ، وإذا كان « التّحليل » قد يطهر العقل من المعتقدات الخاطئة ، فالتّأويل يوضحها فى المقارنات . لذلك تحتاج الفلسفة لكلاً المنهجين ، منهج يهدم وآخر يبنى

B. russell : My philosophical Development, George Allen, London , 1959 p.11. (١)

B. russell : The Problems of Philosophy, Oxford, London, 1929, p.153. (٢)

فلا هدم من أجل الهدم ، ولا بناء على أرض رخوة . إن دور الفيلسوف لا يقتصر على التفسير وحل المتناقضات ، بل إظهارها ، فلا يكون موفقاً ، بقدر ما يكون ثائراً ، أن عمل الفيلسوف الرئيسى الثورة على المتناقضات وإقتلاعها ، وليس بحثاً عن الحل الوسط أو التبرير . والحقيقة أن إعتبار الفيلسوف مؤول ، يجعله أقرب إلى المرشد الروحى للبشرية . ويحيل « الفلسفة » كلها إلى فلسفة أخلاقية ، تصبح مهمتها المقارنة بين ماهو كائن وماينبغى أن يكون ، وتوضح وجود عالم أرقى من العالم الإنسانى ، ووعى أعمق من الوعى الإنسانى ، وبذلك تدعو إلى نظرة جمالية ، تنوب فيها الفروق بين الأفراد ، فيغيب الواقع والحاضر إما فى عالم مثالى أو فى نظرة جمالية ، فتصبح الفلسفة ديناً ، والفلاسفة أقرب للأنبياء ، والتأمل وسيله للخلاص .

إذا كان مبدأ عدم التناقض من مبادئ الفكر الأساسية ، ويكمن دور الفكر فى تحقيق التصالح بين الأفكار والحالات المتناقضة ، فإن وجود التناقض يعد مبدأ مسبقاً وكأن التناقض أساس الوجود . فالنظرية الميتافيزيقية للعالم عند « رويس » تقوم على « التناقض » ، ولما كان العالم تأويلاً ، فلا وجود واقعى له ، إلا كحل وتفسير للمتناقضات ، سواء فى أمور الحياة ، أو الوقائع ، أو الأفكار . كما يظهر التناقض فى معرفة وجود الآخرين كعقول مستقلة ، وتناقض الأفكار والبحث عن الفكرة الثالثة . يحقق الوعى بوحدة الذات . والتناقض بين الماضى والمستقبل ، يوجد الحاضر كوسيط بينهما وتناقضات الكون فى حاجة إلى « مفسر » ، يفسرها ويحويها ، وبذلك يتحقق وجود الله . ويصبح وجود التناقض ، أمراً ضرورياً لوجود الذات والآخر والعالم والله . فإذا كان « الفكر » تأويلاً ، فالتناقض ضرورى لتحقيق هذا الفكر . ولذلك يعد وجود التناقض فكرة رئيسية فى « فلسفة « رويس » ، فإذا لم يكن هناك تناقض ، فلا فكر فلسفى أو دينى يمكن أن يظهر ، ولا وجود لفرد أو عالم أو إله . والواقع أنه يمكن تفسير تأكيد « رويس » على وجود التناقض ، بسببين الأول فلسفى والثانى دينى . السبب الأول ، أنه يمكن رده إلى تأثر « رويس » بالفلسفة الهيجلية ، التى كان يعد أحد روادها ، وظل متمسكاً بها فترة طويلة . وبدو أنه

بالرغم من إعلانه الإستقلال عن « هيجل » (١) . لم يستطع التخلص تماماً من التأثير الهيجلى ، أو ربما قصد من تصريحه ، أنه يعنى الإستقلال عن « هيجل » فى النتائج الفلسفية التى قد يكون قد توصل إليها ، ولا يعنى الإستقلال بمعنى التخلص من روح المنهج الهيجلى . وأما السبب الثانى فى إثبات « التناقض بوصفه أساساً قائماً فى الوجود ، فربما يكون بدافع تبريرى للعقيدة المسيحية ، فالتناقضات فى العقيدة المسيحية مثل إثبات الوجدانية لله والقول بالتثليث فى نفس الوقت ، والطبيعتين المتناقضتين للمسيح ، والخطيئة الأولى والتكفير إلى آخر المفارقات التى يتصف بها الفكر المسيحى ، وتشكل مشكلة فى اللاهوت المسيحى ، والتى قد أشار إليها « كيركجارد » بالمفارقة ، فإذا أراد الإنسان إيماناً مسيحياً عليه أن يتقبلها . فإذا كان التناقض أساسياً فى الوجود وفى عالم الفكر وعالم الدين ، ولا وجود للعالم والإنسان والله إلا من خلال التناقض ، فالتناقض كائن ، ولا تعد « المسيحية » ديناً ناقصاً ، أو أنه لا يتفق مع العقل بسبب وجود التناقضات والمفارقات ، فالمفارقة والتناقض أساس وجود كل شئ ، والحل لتلك التناقضات ، يكون فى مجتمع ، والكنيسة خير ممثل لهذا المجتمع .

من جهة أخرى يلاحظ أن إهمال « رويس » دراسة الوقائع التاريخية للمسيحية ، والإتجاه لدراسة المجتمع الإيمانى والأفكار التى جاءت منه ، تجعل الدراسة مجرد تأويل وتفسير لفكر ، وكأن الأفكار المسيحية سواء الأقوال أو الأمثال التى نسبت للسيد أو جاءت فى رسائل بولس ، عبارة عن « علامات » تحتاج إلى تأويل ، ومجرد وجودها بأعتبارها أفكار عقل ما ، أراد التعبير عن نفسه ، بصرف النظر عن مصادر تلك الافكار او شخصيه أو شخصية القائل ، أو صحة الوقائع التاريخية لتلك الأفكار . وبذلك يصبح تاريخ المسيحية عبارة عن كل أفعال التفسير والتأويل التى تمت على مراحل ، وكونت وحدة هذا الدين . وطالما التأويل عمل الفلسفة (٢) . فالفيلسوف هو القادر على الوصول إلى قلب وجوهر الدين ، وطالما كانت هذه الأفكار المسيحية ، قد جاءت نتيجة تأويلات وتفسيرات ، فأنها نتاج إنسانى وليست حياً إلهياً من أعلى ، وبذلك يخفى العنصر الإلهى من المسيحية ، فليست

J.Royce : The Problem of Christianity p. I " The preface " . (١)

J.Royce : The Problem of Christianity p. II. pp. 168-170 (٢)

نصاً دينياً محدداً ، فالواقعة التاريخية لمؤسسها مجهولة . والقديس « بولس » لا يعتبر المؤسس الحقيقي (١) . ، فهي عبارة عن فكر مجتمع إيماني معين ، ظهر في فترة ما . وبذلك يبدو « رويس » كمن يريد سلب المسيحية صفتها الإلهية ، وتحويلها إلى مذهب إنساني .

كذلك من الواضح أن تصوير « رويس » لمشكلة المسيحية في كيف يوفق المؤمن بين معتقداته ومتطلبات ومتغيرات القرن العشرين ، مشكلة لا تميز المسيحية عن غيرها من الأديان . فمشكلة كل دين ظهر في مراحل حضارية سابقة ، تتمثل في مجموعة من العقائد والآمال ، التي يوعد بها مجتمع المومنين ، وفي أن تلك العقائد يصعب موافقة العقل الحديث عليها . فأصبحت مشكلة المؤمن في القرن العشرين تتمثل في كيفية التوفيق بين معتقداته الدينية ومنجزات العصر الذي يحيا فيه . كذلك لما كانت الأديان تتطلب بطبيعتها تفسيرات وتأويلات وترتبط بالتأويلات بثقافة كل عصر وظروفه ، فإن هذه التأويلات قد تكتسب ، بسبب التقادم وعبادة القديم ، صفة القدسية التي كانت لمعتقدات الدين الأصلية ، ومثل هذا الأمر يتطلب من المؤمن دائماً التمييز بين ماهو أصلي وماهو تاريخي في العقائد ، ولئن كانت المسيحية لا تفضل عن تاريخها ، إلا أن مسألة التمييز لا تعد قاصرة على المسيحية وحدها أو مشكلة تخص المسيحية فقط ، والواقع يبدو أن هدف « رويس » من دراسة مشكلة المسيحية في إطار التمييز بين الأصلي والتاريخي من العقائد ، لم يكن بهدف الفصل ، وإنما بهدف « التوحيد » بمعنى إمكانية التوحيد بين مسيحية « بولس » والمسيحية التاريخية من خلال النظرية الميتافيزيقية للمجتمع ، وبذلك تستوعب الميتافيزيقا الدين كله . كما يلاحظ من جهة أخرى أن النظرية الميتافيزيقية المجتمع « تأويل » ، لاتهدف إلى الربط بين معتقدات المسيحية ونظريات فلسفية معينة ، أو التوحيد بينها وبين نظرية في الوجود كما وحد أنصار « وحدة الوجود » ، ويلاحظ أيضاً أنها لاتهدف إلى تحويل المسيحية إلى نسق فكري ، كما فعل « هيجل » ، إلا أنها قد أفرغت المسيحية من مضمونها وحولتها إلى فكر إنساني ومشكلات إنسانية حياتية إجتماعية ، وإذا كان « هيجل » قد فصل النسق الفكري المسيحي

Ibid ., pp. 350-355.

(١)

عن شخصية المؤسس ^(١) . فإن « رويس » قد أهمل الواقعة التاريخية لشخصية المسيح ، وحول الأقوال والأفعال والأمثال إلى « رموز » و « علامات » ، وإعتبر الأفكار الأساسية فى المسيحية إنسانية المصدر ، ولها تفسيرها العقلى والميتافيزيقى ، فأعتبرها نتاج مجتمع ، ولما كانت طبيعة المجتمع لها جانبها الإنسانى والميتافيزيقى فالمسيحية فكر إنسانى ونتاج إنسانى .

والحقيقة بقدر ما تعد محاولة تأويل أقوال القديس « بولس » وإعتبرها « رموز » ، محاولة لتجديد الفكر المسيحى ، إلا أن مسألة تفسير « الرموز » لتناسب العصر الحديث ، أمر يحتاج إلى معايير لضبط التفسير ، وإلا يتحول الدين إلى مجموعة من الآراء الشخصية ويفقد جوهره . والواقع أن « رويس » قد تعامل مع أقوال « بولس » . بإعتبار بعضها صور خيالية فنية ، مثل أقوال عن نهاية العالم ، وإعتبار البعض الآخر مجموعة من الآراء تستحق التأويل ، ولخص هذا البعض فى عبارة « بولس » بأن الروح الساكنة فى الكنيسة تحقق خلاص البشرية . وطالب المؤمن بالتمسك بهذه العبارة بإعتبرها تمثل جوهر المسيحية ^(٢) . وما على المؤمن إلا فهم العبارة فى ضوء النظرية الميتافيزيقية « العالم تأويل » . والواقع أن يمثل هذا المطلب ، يتم القضاء على المعتقد الوحيد الملخص فى عبارة « بولس » فالنظرية « العالم تأويل » نظرية ميتافيزيقية عقيماً التجريد صعبة الفهم . فتصبح أقوال « بولس » إما صوراً خيالية تهمل ، وإما فكراً ميتافيزيقياً عميقاً . وبذلك يتم القضاء على ما بقى من العقيدة المسيحية ، بعد أن تم التخلص من شخصية المؤسس بحجة عدم توافر المصادر التاريخية ، وتحقق للمسيحية إنسانيتها . كذلك إذا كان على المؤمن المتمسك بمذهب « بولس » القائل بأن خلاص الإنسان يتحقق بفعل الروح الإلهى الحاضر فى الكنيسة ، وتم تعريف الكنيسة الحقبة التى تتجلى فيها الروح ، بأنها التى تسعى لوحدة البشرية ، وأى جماعة تخلص لوحدة النوع الإنسانى وتأمل فى تكوين المجتمع المحيوب ، تعد مظهراً لها ، فإن الكنيسة من خلال هذا التعريف ، تتحول إلى جماعة بشرية تجمعها وحدة الآمال والهدف . وبذلك يتم التخلص من مظهر أساسى من مظاهر الدين المسيحى ، المتمثل

(١) حسن حنفى - قضايا معاصره فى الفكر المعاصر - محاضرات فى فلسفه الدين عند هيجل

J.Royce : The Problem of Christianity p.II pp.350-360

(٢)

فى الكنائس الرسمية ، وتفقد المسيحية رمزاً من موزها ، وتتحول إلى فكر إجتماعى . وإذا كانت أفعال المحبة والتكفير ، التى تقوم بها الروح تحقق خلاص البشرية ، فإن هذه الأفعال قد تحولت ، فى ضوء النظرية الميتافيزيقية إلى أفعال تفسر المتناقضات فى العالم وأفعال تصالح . كذلك لما كان العالم مجتمعاً ، ولكل مجتمع مفسره ، فإله مفسر العالم أو روح المجتمع ، أو الفكر الشامل ، وبذلك تصبح أى أفعال إنسانية تحول المجتمع إلى وضع أفضل أفعال تكفير ، ويتحول الله إلى فكر شامل ، ويكتمل إعتبار المسيحية فكراً إنسانياً .

كما يوضح مثال « الفيلسوف الزائر » من عالم بولس إلى العصر الحاضر أو القرن العشرين ، واقعة أن الفكر الفلسفى أسبق من الفكر الدينى ، وأن الفكر الدينى لا يستقيم بدون فكر فلسفى . أو أن العقل أشمل من الوحى ، ويحويه فى جوفه ، فأختيار الرجل المستيقظ فى العصر الحديث فيلسوفاً ، والمطالبة بالتأويل الفلسفى للوصول إلى المسيحية الحقبة ، يوضح أن الفلسفة تمثل جنور الدين ، ومن أراد فهماً للدين عليه العودة إلى الجنور إلى الإصل والروح الكامنة فى النصوص ، إلى الروح الساكنة فى الكنيسة ، يبحث عن مبادئها الميتافيزيقية فى ضوء « عالم التأويل » ، وكأن الفلسفة مضمون ، والدين هو الشكل ، فلا حل لمشكلة المسيحية إلا بالتأويل والتفلسف . والحقيقة أن مناقشة « رويس » لمشكلات المسيحية ، وتفسير آرائه ، توحى بأنه يخرج عن المواقف الثلاث المألوفة للفيلسوف الدارس للدين . فالفيلسوف إما يكون حراً ناقداً وهادماً للدين ، وإما أن يكون مبرراً ومدافعاً أو ومؤمناً ، وإما أن يكون حيادياً ، فمن الواضح أن « رويس » ينتقل بين المواقف الثلاث ، فلئن كان يبدو من تفسيراته لمشكلة المسيحية ، أنه يحاول أفرغ مضمونها العقائدى ، إلا أنه لا يرفضها أو يأخذ منها موقف الهدم ، والحقيقة ومما يبدو فى محاولة « رويس » تحويل الأفكار المسيحية إلى فلسفة بالتأويل ، فمن الواضح من المسائل التى عالجها ، وعدم رفض أقوال « بولس » ، وإنما محاولة تأويلها ، ماهى إلا صورة للفيلسوف المؤمن ، الذى يرفض فى الظاهر العقائد الجامدة ، ويسعى فى الباطن للدفاع عن المسيحية . كذلك ماظهر من محاولة تحويل المسيحية من وحى إلى عقل ومن مصدر إلهى إلى مصدر

إجتماعى ، ومن إعلاء لصورة الإنسان بصورة عامة ، فلقد هدف منها « رويس » أيضاً
الدفاع عن المسيحية بصورة غير مباشرة ، فالمسيحية دين العقل والعقل قادر على توضيحها
ومفهما ، وهى الدين الوحيد الذى يرفع من شأن الإنسان .